محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بافريقية

المهالبـــــــة

لم يكتف أبو جعفر المنصور بـذلك ،لأن الخوارج لا زالوا على قوتهم ، فسارع بإعـداد جيش جديـد أرسله إلى أفريقيـة بقيادة محمـد بن الأشعث ، فـاستقر فى القيروان واجتهـد فى إقرار الأمن فى أفـريقيـة وبذل بـالفعل جهـودا كبيرة فى ذلك السبيل ، وعندما انتهت ولايته فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، عهد هذا فى ولاية أفريقيـة إلى زعيم من زعماء العرب البلديين فى مصر ، وهو **الأغلب بن سالم بن عقال التميمى** ، وكـان فارسـاً شهماً ، فى المسير إلى المغرب ، فسـار إلى أفريقيـة مع أهله ومن بينهم ابنه إبـراهيم . ودخل أفريقية وجعل ينظم أمـورها ، ولكن الخوارج عادوا مرة أخـرى يهاجمون أفريقية بزعامـة رجل جديـد يسمى أبا حاتم وتمكن أبـو حاتم من قتل الأغلب بن سالم بن عقال ، فنجـا ابنه إبراهيم بمن معه إلى طبنة فى إقليم الزاب وهنا استقر وأخذ يمهد الأمر لنفسه .

أصبحت أفريقية مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية ، فهى بلد بعيد عن مركز الخلافـة ، تعيش فيـه جماعـات متحـاربـة متعـاديـة ، بعضهم من أهل السنـة وبعضـهم من الخوارج بشتى مـذاهبهم ، وبعضـهم عرب وبعضـهم بـربر . وكـان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال ذلـك البلد ، فانتهى رأى أبى جعفر إلى أن يولى هذه النـاحية واحـداً من كبار رجـاله ذوى الكفـاية ، ويطلق يـده فى الأمور حتى يستطيع أن يخلص بأفـريقيـة من الفـوضى والقلق . ووقـــع الاختـــيار على رجـــل من بنى **المهلب بن أبى صفـرة** ، ذلك القـائد الإدارى الكبير الذى عـاش وعمل فى العصر الأموى . وكان المهالبـة من الأزد ، وهم من عمان ، ولذلك يعرفون بأزد عمان . وهذا الـرجل هو **أبو حفص عمـر بن قبيصة المهلبى** . ووصل ذلك الرجل إلى أفـريقية سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨م ، وبـدأ بذلك عصر قصير مدتـه خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبى فى أفريقية هو عصر المهالبة ، لأن هذا الرجل

لم يـذهب وحده ، بل أخـذ معه نفـراً من أهل بيته من آل المهلب ، وقـوة عسكريـة كبيرة . وكان المهالبة فى جملتهم أهـل استقرار وخبرة بشئون الإدارة ، وسنرى أن عصرهم القصير سيكون عصراً حاسماً بالنسبة لتاريخ أفـريقية كولاية إسلامية ومركز من مـراكز السنة والجماعة ، وكذلـك بصفتها مركزاً من مراكـز العروبة . وكـان على أبى حفص عمـر المهلبى أن يواجـه الخوارج الإبـاضية ، الـذين كـان يتزعمهم أبـو حاتم وتمكن أبو حفص عمـر من الانتصار عليه أول الأمـر ، ولكنه انهزم وقتل سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١ م ـــ وحل محله واحد من كبار المهـالبة ، بل من كبار العـرب فى عصر أبى جعفر المنصور ، وهـو يزيد بن حاتـــم المهلبى ابن عم أبى حفص . وكـان يزيد يتـولى أمر مصر فأمـره أبو جعفـر بالمسير إلى أفـريقية فانتقل إليها واستقر فيها سنة ١٥٥هـــ/ ٧٧٢م وبدأ فى تاريخ أفريقية عصراً من الاستقرار والازدهار وهو عصر المهالبة .

كان يـزيد بن حاتم سيـداً عربياً يتميز بكل مـايتميز به سـادة العرب فى تلك العصور من رياسة وشهـامة وكرم ، وكان الشعراء يمتدحونـه ، إذ أنه كان بعيد الصوت فى دولة بنى العباس . وتمكن هذا الرجـل من إقرار الأمور مستعيناً بقومه من الأزد ، ولم يكن يطمئن كثيراً إلى الجنـد الخراسـانى ، الذى كـان فى ذلك الحين عماد القوة العبـاسية . ولابد أن نلاحظ أن مـانسميه بالجنـد الخراسانى لم يكن كله ولا جلـه من الموالى ، بل إن لقب خراسانى كان يطلق فى المقـام الأول على عرب خراسان ، أى العـرب الذين ولدوا فى خراسان ونسبوا إليهـا . والجند الخراسانى الذى سار مع **أبى مسلم الخراسانى** للقضاء على بنى أمية ، كان فى غالبيته جنداً عربياً ، لأن الحركة العباسية لم تكن ثورة فرس على العرب كما يقال ، وإنما كانت ثورة عرب على عرب ، هدفها تغيير الأوضاع داخل نطاق الدولة الإسلامية العربية وكلامنا هـذا عن طبيعة الجند الخراسانى الـذى اعتمدت عليه الدولـة العباسية ، يجعلنا نفهم كيف أن الدولة العباسية على ضخـامة جيوشها وسعة ثروتها وعظم جاهها ، لم تكن دولـة فاتحة ولم تشتهر بالقـــوة العسكريـة ، ولهـــذا لم يفتح بنو العباس شيئـاً زيادة على ما فتح بنو أميـة ، وكان قصارى جهدهـم المحافظة على الموجود .

ولكن على الرغم من سوء المادة العسكرية التى اعتمد عليها يزيد بن حاتم ، فإنه استطاع بكفايته الشخصية ، أن يقر الأمور فى أفريقية ، ويقيم حكماً عادلاً زاهراً مدة خمسة عشر عاماً من الهدوء ، أى من سنة ١٥٥ ــ ١٧١ هـ/ ٧٧٢ ـ ٧٨٧ م .

جهود يزيد بن حاتم فى أفريقية :

حكم يزيد بن حاتم أفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات القليلة من أصعب فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً على أفريقية وفائدة لها ، فقد كان الرجل ذكياً نشيطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة ، وكذلك كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغار ، وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة والجماعة .

دخول المذهب المالكى إلى المغرب وتحول أفريقية إلى حصن السنة والجماعة فى المغرب :

والمذهب المالكى هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية فى الفقه الإسلامى ، وهو أولها ظهورا ، فقد توفى **مالك بن أنس** منشىء هذا المذهب ، ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م ، وهو إمام دار الهجرة ، لأنه عاش ودرس فى مدينة الرسول ﷺ ، وقد بدأ حياته محدثاً أى جامعاً للحديث حافظاً له ، ولذلك يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث . ومن الحديث انتقل مالك إلى التشريع أى إلى استخراج الأحكام من الأصول ، والأصول عند مالك هى : القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة ، أى أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن إذا وجد فيه نصاً صريحاً ، فإذا لم يوجد استعان بالحديث الشريف ، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيده فى هذه القضية ، قاس الأمور على نظائرها واستعان فى ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة ، مما أقره رسول الله ﷺ ومن اتبعه من الصحابة . ومن ذلك كله استخرج مالك رأيه ومذهبه ، ولهذا يسمى المذهب المالكى بمذهب الرأى ، وهو عندهم رأى مالك . ويمتاز المذهب بالوضوح والحسم والمنطقية ، فهو لا يترك الانسان محيراً بين آراء شتى ، كما نجد فى المذهب الحنفى الذى أنشأه **أبو حنيفة النعمان بن ثابت** . ويمتاز المذهب المالكى بنصه نصا واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدة

المسلمين ، والمحافظة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ، ولهذا السبب لقى هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الناس . وارتفع شأن مالك وأصبح نموذجاً لرجل العلم فى تاريخ الإسلام ، خاصة وقد كان الرجل عزوفاً عن المناصب ، صارفاً جهده كله إلى العلم ، وأعانه على ذلك أنه كان ميسور الحال عالى الهمة ، لا يتدنى إلى طلب وظائف أو يسعى إلى قربة من سلطان . وكان رجلاً حسن السمت عظيم الهيبة ، يلبس أحسن الثياب ، ويجلس لطلابه فى هيئة جليلة ، ويسود مجلسه وقار وهيبة تزيد على هيبة السلاطين ، وكان يعلل ذلك بقوله «إنما أرفع جاه العلم » . ومن هنا أعلى مالك مرتبة العلماء وبهر الشبان ، فأقبلوا عليه يدرسون مذهبه وأسلوبه فى الحياة ، أو ما يسمى بشمائل مالك ، ومن هنا أصبح مالك بن أنس شخصية حضارية لا مجرد عالم متقن للعلم .

ولهذا نجد أن دخول المالكية فى المغرب والأندلس ، لا يعتبر مجرد دخول مذهب فقهى ، وإنما هو دخول أسلوب حضارى ، فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم وأهله إلى مستوى اجتماعى بل سياسى ، جعل العلم رمزا من رموز القوة والسلطان . وإذا كان تاريخ المسلمين قد انحرف فى العصر العباسى الثانى ، حتى أصبح السلطان فى يد الأجانب عن البلد فى كل مكان تقريباً ، وأصبحت القوة العسكرية قوة أجنبية مرتزقة فى معظم بلاد المسلمين ، وحرم أهل البلاد فى كل بلاد الإسلام من حقهم الشرعى فى تولى أمور بلادهم ، فقد اتجهت همة الناس إلى بلوغ القوة والجاه عن طريق العلم والدراسة . وضرب لهم مالك المثل فى ذلك ، بما ذكرناه من خصاله وأسلوبه فى الحياة والعمل ، وبلغ بذلك مكانة اجتماعية كبرى وقوة سياسية كان بنو العباس يحسبون لها كل حساب ، فاجتهد الطامحون من شباب أهل العلم فى محاكاة مالك بالسير فى طريقه والتأسى به فى أعمالهم ودراستهم وتصرفاتهم . وبلغ الكثيرون منهم بذلك مراكز عالية ومناصب ذات خطر فى بعض البلاد ، وأصبح رجال العلم أى الشيوخ ، هم رؤساء الناس فى كل جماعة إسلامية أخذ شيوخها بمذهب مالك ، وهذه الظاهرة الحضارية السياسية مرجعها إلى ذلك العمل الجليل الذى قام به مالك بن أنس وتلاميذه .

دخل مذهب مالك بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه ، ممن تفقهوا بعلمه

واقتفوا أسلوبه فى التدريس وفى الحياة ، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً كالمذهب المالكى ، يجمع الناس على رأى واحد فى القضية الواحدة ، دون أن يفرق أذهان الناس حول قضايا الفقه ، كما كان الخوارج يفعلون ، ومن ناحية أخرى فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء ، فيعطيهم مالهم ويأخذ حقه منهم ، فعندما أقبل هارون الرشيد إلى المدينة ، طلب أن يأتيه مالك فاعتذر مالك وعندما لقى الخليفة وهو هارون الرشيد ، قال له : « لا أحب أن يرانى الناس ساعياً إلى السلطان حاملاً حديث ابن عمك رسول الله ﷺ » ، فأعجب رده الخليفة وزاد من قدر مالك فى نظره .

وعندما تحدث معه وجد فيه رجلاً مكتمل الشخصية واسع العقل والعلم حسن التصرف ، جميل السمت ، فزاد فى كرامته فى حين أن أبا جعفر المنصور أهانه واعتدى عليه عقاباً له على قوله الحق .

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم فى المساجد ، ومنهم نفر من أجل مؤسسى الفقه الإسلامى ، كالإمام الأوزاعى ، الذى انتشر مذهبه فى الشام كله ووصل إلى الأندلس . ولكن مالكاً كان أستاذاً بمعنى الكلمة ـــ نظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه ، واتخذ فى داره مجلساً للتدريس وأقام لتلاميذه عريفاً ومقرئاً ، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع الطلاب وحفظ النظام أثناء الدرس .

وكان مالك لا يجلس للإقراء إلا فى أحسن ثيابه ، وكان حريصاً على النظافة وكان يطلب إلى تلاميذه الصمت التام أثناءإلقاء الدرس ، فإذا شاء طالب أن يسأل شيئاً فيكون ذلك فى آخر الدرس . ومع ذلك فقد كان مالك إذا آنسَ من تلميذ استعدادا حسناً ، خصه بدرس له وحده ، كما فعل مع المغربى القيروانى **البهلول ابن راشد** . ولم يكن مالك يتكسب بالعلم ، فما أخذ يوماً من طالب درهما ولا هو كان يقبل الهدية ، وكان عند إلقاء درسه فياضاً مسترسلاً ، ينتقل من نقطة إلى نقطة بنظام وهدوء ، وكل هذا فتن تلاميذه به وجعلهم يدرسون شخصه وأسلوبه فى الحياة والعمل ، كما كانوا يدرسون علمه . وبالفعل كان هناك طلاب يفرغون من سماع الحديث والفقه على مالك ، ثم يمضون بعد ذلك يدرسون ما يسمى عند

مؤرخى المذهب ، بشمائل مـالك ، وأهمها إلى جانب العلم الغـزير ، احترام النفس والترفع عن الصغائر وعدم الاهتمام بالوظـائف والثبات أمام الحكام . وكان مالك يقول إنه بذلك يرفع جاه العلم ، ولا عجب والحالة هذه أن يطلق النـاس عليه لقب « **أمير المؤمنين فى الحديـث** » ، ولا غرابـة كذلك فى أن نجد الكثيرين من تـلاميذه يحرصون على أن يكـون كل منهم مالكاً فى بلـده ، رجلاً غزيـر العلم ، منصرفاً إلى الدرس ، مترفعـاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسـه . هذه الناحية تهمنـا بصفة خاصة ، لأن أولئك الفقهاء الذين التزموا هذا المسلك ووفقوا فيه ، أصبحوا رؤساء الناس فى بلادهم . حقـا كان هناك أمراء وحكام وأصحاب سلطـان سياسى ، إما مستقلين ببـلادهم أو تـابعين لدولـة الخلافـة فى بغداد ، ولكـن الناس اختصـوا الفقهاء بثقتهم واعتبروهم قادتهم وأصحاب الـرأى فيهم ، فى كل مكان انتشر فيه المذهب المالكى ، فى المغرب والأندلس خاصة .

أدخل مذهب مـالك فى المغرب نفر من أجلاء الشيـوخ من أمثال **عبد الله بن فروخ الفارسى وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات** ، وكانوا جميعاً من كبـار العلماء حقاً ، وقد اكتسبـوا الكثير من خصال مـالك وتمكنوا من مـذهبه ، وسمع بعضـهم كـذلك على أبى حنيفـة النعمان بن ثـابت ، فقيه العـراق وصاحب المذهـب الحنفى المعروف . ولكن قلوبهم ظلـت معلقة بمالك دون غيره ، وتمكنوا بفضل إخـلاصهم وعلمهم وزهدهم ، من أن يجعلـوا المذهب المالكى هو المذهب المقـرر المعترف به رسمياً فى أفـريقية ثـم فى بقية المغرب بعـد ذلك . وعلى أيديهم بدأت المالكية فى المغرب تاريخها الطويل ، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهى بل كـانت عنصراً حضاريـاً له أثـره فى كل نواحى الحيـاة فى المغرب الإسـلامى ، ويكفى أن نشير هنا إلى ما ذكرناه من أن الفقهاء المالكيين أصبحوا رؤساء الناس وقـادتهم ، فى حين تـوالت أخطـاء رجـال السيـاسـة وشيـوخ القبـائل ، مـا بين صنهاجيين وزناتيين ، مما أيأس الناس منهم ومن الحكـومات القائمة جملة . وقد عرف أولئك الفقهاء كيف يحافظون على أمة الإسلام فى أفريقية ملتفة حول مذهب السنة والجماعة ، وقد رأينـا كيف تمكن حنظلة بن صفوان الكلبى (١٢٤ ـ ١٢٧ هـ/ ٧٤٢ ـ ٧٤٥م) من إنقاذ أفريقيـة من سيطرة الخوارج ، ما بين صـفرية وإباضية والاحتفـاظ بها جزيرة سنية ، تعتصم بها السنة والجماعـة ، وكان هذا

فى حقيقة الأمر إنقاذاً للإسلام فى المغرب كله ، ولذلك يعتبر حنظلة بن صفوان الكلبى هذا ، من بناة تاريخ المغرب الإسلامى .

نعم إن الأخطار لم تتلاش ، وعاد الخوارج يحاولون انتزاع أفريقية نتيجة لسوء سياسة **عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وآله** ، ولكن أهل أفريقية نجحوا فى التمسك بوحدة قطرهم المذهبية والفكرية ، فثبتت أفريقية بفضلهم لمحاولات الزعيم الخارجى **أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى** ، الذى دخل القيروان مع أتباعه من الخوارج الإباضية ، قادمين من طرابلس ، بحجة إنقاذها من الخوارج الصفرية ، وانتهى الأمر بانتصار محمد بن مقاتل العكى العباسى ، وبانتصاره هذا مكن للسنة والجماعة ، وقتل أبى الخطاب فى صفر ١٤٤هـ/ مايو ٧٦١ م، وانتصار حنظلة بن صفوان ثم محمد بن الأشعث ، الذى عبد الطريق أمام العباسيين ليرسلوا إلى أفريقية **عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب** فى صفر ١٥٦ هـ/ يناير ٧٧٣ م ، وهو أول المهالبة ومنهم يزيد بن حاتم الذى نتحدث عنه الآن ، والمهالبة هم الذين ثبتوا مذهب السنة والجماعة فى أفريقية ، وعلى أيديهم تلاشى كل خطر خارجى على أفريقية . واتجه الخوارج إلى المغرب الأوسط خارج سلطان الدولة العباسية حيث أنشأوا إمامة الخوارج الإباضية ، على يد عبد الرحمن بن رستم خليفة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، وتلك هى الدولة الرستمية الخارجية الإباضية التى اتخذت من تاهرت قاعدة لها ابتداء من سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م وسنتحدث عنها فى حينها .

وهكذا أصبحت القيروان بفضل أولئك الفقهاء ، وما بذله يزيد بن حاتم من جهود مركزاً للعلم الإسلامى ، لا يقل عن البصرة والكوفة والفسطاط ، وهى حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضارى فى المغرب .

المهم لدينا أن نجاح يزيد بن حاتم جعل الدولة العباسية تترك أمر أفريقية فى أيدى أهل بيته ، الذين عرفوا بالإخلاص للدولة ، فتوالى المهالبة على حكم أفريقية وأهمهم بعد يزيد بن حاتم أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عنه كفاية وقدرة ، وقد حكم ثلاث سنوات انتهت سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م .

وكان آخر المهالبة وهو الفضل بن روح بن حـــاتم الذى تولى سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣ م ، ولم يحكم إلا سنة ونصفاً تقـريباً فإن جند أفريقية والمغـرب لم يرضوا عن استبداده ، هو وآلـه ، بكل الوظائف والولايات الكبرى فى البـلاد ، وثاروا عليه بقيادة **عبد الله بن عبدويه بن الجارود** قائد جند تونس ، وتمكن هذا القائد ونفر آخـر من القواد من عـزله ثم قتلـه سنة ١٧٨ هـــ/ ٧٩٤ م وتقاسمـوا الإدارات والنواحى فيما بينهم .

وهكذا انتهت ريـاسة المهالبـة فى أفريقية بعـد حـــوالى ربع قـرن من أواخر أيـــام أبى جعفـر المنصـور العباسى ، إلى أوائل أيـام هـارون الرشيـد . وفترة المهالبـة على قصرها تعتبر من أهم فترات تاريخ المغـرب الإسلامى ـ ففى أثنـائها استقر الأمر للمـذهب السنى بصورة نهائية فى أفريقيـة ، وسادت المالكية وانتهى أمر الاجيـال الأولى من العـرب البلديين ، بعـد أن فشلوا فى السيطـرة على البلاد ، وحلمـوا كما رأينـا فيما روينـــا من أخبـار محاولـة عبـــد الـرحمن بن حبيب ، بالاستقلال بأفريقية ، فأوقعوا البـلاد فى الفوضى والاضطراب . وبعد ذلك اندرج معظم العرب البلديين فى أفريقية فى غمار الناس ، وأصبحوا من جملة أهل المغرب ، وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد فى تعريب البربر ونشر الإسلام السنى بينهم .

وهؤلاء العـرب الذين أصبحوا مغـاربة هم الـذين يسمون « **عـرب الفتح** » وستظل جماعـــة منهم تطلـب الحكم ، ولكن غـــالبيتهم العظمى انصرفـت عن السياسة ودخلت فى الناس وكان لهم أثر بعيد فى تعريب المغرب .

* * *

نهـاية عصـــر الـــولاة
وبداية عصر الدول المحلية
فـــى أفـــريقية والمغـــرب

بعد نهايـة المهالبـة عاشت أفـريقية سنـوات من الفوضى ، إذ اشتـد تنافس زعماء العرب فى البلاد فى الوصول إلى السلطان فى القيروان أو فى الانفراد بالسلطة السياسية فى نواحيهم ، وكانت الخلافة العبـاسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية أفريقية ، وتضـم ـ كما قلنا ـ ولايات طـرابلس وأفريقية (تونـس) والزاب ، وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية (ويقابل اليوم محافظة قسطنطينة) وبذلت الدولـة العباسية ـ كما رأينا ـ جهودا ضخمة للمحافظة على هـذه الولاية تابعـة لها داخل إطار السنـة والجماعة ، وقـد رأينا مـا بذلته مـن جهود فى ذلك السبيل ، وقد توجت هذه الجهود بانتصار **حنظلة بن صفوان** فى موقعتى القرن والأصنـام بجهود المهـالبـة ، التى ثبتت ـ كما رأينا ـ قـواعـد النظام والسنـة والجماعة فى أفريقيـة ، وجعلت منها جزيرة أمـان واستقرار نسبى وسط المغرب ، الذى اجتاحته الفتن وحركـات الخوارج من كل ناحية .

ولكن الدولة العباسية لم تستطع رغـم جهودها أن تمد سلطانها إلى أبعد من إقليم الـزاب غربـاً ، وقد قـرر الجغرافى **اليعقوبى** ، الـذى زار أفـريقيـة فى عصر الأغالبة ، أن منتهى سلطة العباسيين غرباً ، كانت مدينة أربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف ، ومعنى ذلك أن ما يلى نهر شلف غرباً ، كان خارجاً عن سلطان الدولة العباسية ، وكان منطقة فراغ سياسى حقيقى .

هنا ، فى ذلك الفراغ السياسى الذى امتد من مجرى شلف إلى ساحل المحيط ، قـامت أول الأمر وبعـد الفتنة المغـربية الكبرى ، إمـارات محلية كثيرة ، معظمهـا خارجى زعماؤها عرب معـادون لدولة الخلافة أو بربر مستعـربة . وأشهر هذه الدول وأطولها عمراً إمارة **أبى قرة المغيلى** الخارجى الصفرى ، الذى نادى بنفسه إماماً وخوطب بأمير المؤمنين مدة أربعين سنة فى إقليم تلمسان .

ومن أشهر هذه الإمارات المحلية كانت إمارة نكور التى أنشأها حوالى سنة ٩٦هـ/ ٧١٤ م زعيم عربى يسمى **صالح بن منصور الحميرى**، فى قطعة من ساحل المغرب الأقصى، تمتد من مليلة إلى الحسيمة، وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها بربر زناتيون. ولكن هذه الدولة كانت سنية، وقد شدت أزر نفسها بالدخول فى ولاء بنى أمية الأندلسيين (قامت دولتهم سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦ م) وكانوا سنية متشددين، وقد بذلوا جهوداً كبيرة فى نصرة السنة فى المغرب الأقصى. وقد عمرت دولة نكور طويلاً ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف فى أثناء الصراع الطويل بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى. ولم تنته إلا على أيدى المرابطين فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى).

أفريقية من المهالبة إلى بنى الأغلب :

ونعود إلى أفريقية وهى موضع دراستنا الآن فنقول إن الإدارة العباسية أقامت عليها أيام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد فى بابه، هو **هرثمة ابن أعين**، وكان من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط الرشيد، وكان شيخاً مجرباً فى الحروب والولايات، فكان اختيار هارون الرشيد إياه لولاية أفريقية اختياراً موفقاً، لأن المشكلة الرئيسية التى كانت تقلق بال الدولة من ناحية أفريقية فى ذلك العصر، كانت مشكلة عرب أفريقية الذين كانوا يتجمعون فى المعسكرات فى سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة وغيرها من مدن ولاية أفريقية وتنافسهم وحربهم بعضهم مع بعض، ومعاداتهم لكل وال ترسله الدولة. وقد رأينا ما صنعه **عبد الله بن عبدويه بن الجارود** مع **الفضل بن روح ابن حاتم**. أقبل هرثمة بن أعين إلى أفريقية وهو عربى صريح، وفى نيته أن يضع حداً لفتنة أولئك الأعاريب كما كان الناس يسمونهم فى ولاية أفريقية.

حكم هرثمة بن أعين أفريقية سنتين (١٨٠ ــ ١٨١هـ/ ٧٩٦ ــ ٧٩٧ م) هابه أثناءها رؤساء العرب وركنوا إلى الهدوء. وأتيحت له بذلك الفرصة ليعمل على تجديد ما تخرب من المدن والموانى والمنشآت وليعيد ثقة الناس فى الدولة.

وقد اهتم هرثمة بن أعين بالإنشاءات ، فجدد إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق فى القيروان واهتم ببناء قصور العباد .

والقصور جمع قصر ، ويراد به فى أفريقية شىء يشبه الدير عند النصارى ، أى بناء كبير ينشأ على ساحل البحر وربما على حدود الصحراء لكى يقيم فيه أولئك الزهاد الرباط على حدود دار الاسلام وثغوره والاشتراك فى محاربة أى عدو يهاجم بلاد الإسلام ، لهذا كان العباد والزهاد من أهل القصور يسمون أيضاً مرابطين ومثاغرين يقضون أعمارهم فى العبادة وحماية أرض الإسلام .

وكان أولئك العباد والزهاد يعيشون فى قصورهم ورباطاتهم حياة مشتركة : يأكلون معا ويصلون معا ، ولكل منهم خلوة صغيرة يتعبد فيها وحده ويقرأ القرآن ساعات معينة من الليل والنهار ، وكان القصر يضم مسجداً للصلاة .

وفى العادة يبنى القصر على هيأة حصن عالى الأسوار . ويكون من طابقين : الطابق الأول عام ، فيه المسجد وقاعات الدروس وقراءة القرآن والطعام ، ويخصص الدور الثانى للخلوات . فبعد صلاة العشاء الآخرة يأوى كل عابد إلى خلوته ليتعبد ويصلى ، ويقوم ما شاء الله له أن يقومه من الليل ، ثم ينام ليصحو مع الفجر ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، فيقوم نفر منهم فى أبراج الحراسة بالتناوب بالليل والنهار ، وللقصر أو الرباط شيخ من أهله هو رئيسه ومنظمه والمسئول عنه ، ويكون فى العادة من أجلاء الشيوخ ، الذين يرفعهم الناس إلى مراتب الأولياء فيكتسبون بذلك جاها وهيبة فى القلوب ، تمكن لهم من إدارة مثل هذه المنشآت التى كانت تضم فى بعض الأحيان مئات من العباد والزهاد . وكان يحيط بالقصر فى العادة أرض تعتبر ملكه ، ويقوم الزهاد بزراعتها للتقوت بمحصولها ، لأن المفروض أنهم يعيشون من عمل أيديهم ولا يأكلون إلا مالاً حلالاً .

وقد أبدع أهل المغرب خاصة ، فى إنشاء هذا الطراز من القصور ، وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الأغالبة بالرباطات ، فأنفقوا عليها بسخاء . وقد بقيت لنا بعض هذه القصور إلى اليوم ، مثل قصر المنستير على الساحل الشرقى لتونس ، وهو بناء جميل ، رممته

الحكومة التونسية وأصبح من روائع العمارة الإسلامية فى المغرب ، وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب فى سوسة ورباط تونس ورباط بونة التى تسمى اليوم عنابة إلى جانب رباط المنستير .

وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور ، أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة . وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء فى صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة . ومن هنا فقد كانوا فى الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة ، خاصة وقد امتازوا بصدق وإخلاص وإيمان عميق بالمذهب السنى ، وكانت ثقة الناس فيهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملاً إيجابياً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة فى أفريقية .

وبعد سنتين من الحكم ، رأى هرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته فى أفريقية وأقر الأمن فى البلاد ، ولكن الحقيقة أنه قد تعب وتاقت نفسه للعودة إلى بغداد .

أصل الأغالبة : إبراهيم بن الأغلب :

وكان من بين كبار عرب أفريقية رجل يسمى **الأغلب بن سالم بن عقال التميمى** . كان أصله من عرب مصر ، وكان من كبار رجال الجيش ، وعندما أرسلت الخلافة الوالى **محمد بن مقاتل العكى** إلى أفريقية كلفت الأغلب بن سالم ابن عقال بالمسير معه فى نفر من جند مصر ، فدخل أفريقية واستقر والياً على الزاب ، وكان هنا تميميون كثيرون ، ثم قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى حرب الخوارج ، فأقام هرثمة ابنه **إبراهيم بن الأغلب** والياً على الزاب ، وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً ، كان ينوى أن يتجه لدراسة العلم فى مصر ، ودرس على الليث بن سعد ، ولكنه عندما دخل أفريقية اتجه إلى السياسة وجمع التميميين حوله ، وصار من أكبر الشخصيات العربية فى المغرب ، وأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقرَّبه وأعلى مكانته .

وعندما أراد هرثمة أن يعود إلى بغداد ، اقترح على هارون الرشيد أن يقيم إبراهيم بن الأغلب عاملاً على أفريقية ، فاشترط إبراهيم على دولة الخلافة أن

تقيمه على أفريقية بصورة دائمة ، فهو شديد الإخلاص والولاء للبيت العباسى ، ثم إنه رأس التميميين وهم أكثر عرب أفريقية ، وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب . وقد اقترح إبراهيم بن الأغلب على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار ، ويستغنى عن مائة ألف دينار ، كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفريقية . وتعهد بأن يتصرف كعامل عباسى تابع لدولة الخلافة ، وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته لكى يستطيع مواجهة نفر من زعماء العرب المشاغبين من أمثال **الحسن بن حرب الكندى**، وكان زعيم جند العرب فى تونس . فأجابته الخلافة لما طلب ووافقت كذلك على أن تكون الولاية فى بنى الأغلب ماداموا على الطاعة والولاء ، ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخلافة الحق فى تعيين قاضى القيروان ، وأن يكون للخليفة الحق فى عزل الوالى الأغلبى إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم بدله أغلبياً آخر . وتم الاتفاق على ذلك كله ، وتولى إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة فى تاريخ أفريقية : تجربة حكم أفريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .

* * *

obeikandl.com

دولــة الأغالبـــة فــى أفريقيـة
(١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م)

كان قيام دولة الأغالبة فى أفريقيــة ، التى كانت تتكون من طرابلس وأفريقية وجزء من المغرب الأوسط هو إقليم الزاب ، تجربة جديدة فى نظم الحكم الإسلامية فللمرة الأولى تعهـد الخلافة إلى رجل من المغـرب فى الانفراد بولايـة من ولاياتها ، ليحكمها حكماً شبه مستقل فى نظير مبلغ قليل من المال ، إلى جانب التعهد بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية . وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفاً على أهل بيت ذلك الرجل ، يتوارثـونها فيما بينهم ، ماداموا على الولاء الكامل للبيت العباسى ، والشرط الوحيد الذى اشترطتـه الخلافة العباسية هو البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها ، وكذلك حمايــة حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية ، التى وقفت بصورة رسمية عند المجرى الأعلى لنهر شلف ، الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية .

نقول هذا وإن كنا لا نملك نصاً ، ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكلامنا هنا قائم على ما ورد فى مراجعنا عن هذا الاتفاق وهــو قليل . ذلك أن تاريخنا الإسلامى يخلو من الوثـائق الرسمية فى معظم عصور تاريخه ، وكل ما تقوله المراجع هو ما ذكرناه من أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب فى أن يقيمه عـاملاً شبه مستقر على المغرب على الشروط التى ذكرناها . ويبدو أن هـرثمة بن أعين كان له دور فى ذلك ، وقد أعجب بإبراهيم بن الأغلب ووثق فيه وفى إخلاصــه لبيت بنى العباس ، وكان إبراهيم بن الأغلب من أهل الولاء لبيت الخلافـة ، وكذلك كان أبوه الأغلب بن ســالم بن عقال وهو من تميم ، القبيلة العـربية الكبيرة . وكان كما قلنا من كبار جنـد مصر وندبه الخليفة مع محمد بن مقاتل العكى الذى أرسله إلى أفريقية ليحارب الخوارج .

وقـد قتل الأغلب بن سالم بن عقــال فى الصراع بين رجـال الدولـة العباسيـة

والخوارج ، وكان ابنـه إبراهيم مقيماً فى إقليم الزاب مع قـومه من تميم ، فلما قتل أبوه أصبح هو والياً على الزاب ، وكان شابـاً نشيطاً ذكياً أعجب به هرثمة بن أعين لنشاطه وذكائه وفصاحته . ويبدو أن هرثمـة هو الذى توسط بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيلة فى شأن أفريقية ، وتمكنت بعد جهـود مضنية من المحافظـة عليها فى إطار السنة والجماعـة وإبعاد الخوارج عنها . وكان إبـراهيم بن الأغلب شاباً طمـوحاً يرى نفسه أهـلاً للولاية ، وطمحت نفسه إلى الانفراد بشئـون أفريقية مع بقائه على الـولاء للبيت العباسى . واتفق طموحه مع ما كانت الدولة العبـاسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية فى يد أمينة وتستريح من تكـاليف نفقاتها عليها ، وهى جد ثقيلـة كما رأينا . على هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد .

حكم إبراهيم بن الأغلب :

حكم إبـراهيم بن الأغلب من ١٨٤ ـ ١٩٦ هـ / ٨٠٠ ـ ٨١٢ م ، وقـد حكم أفـريقيـة فى ظروف عسيرة ، فلـم يكن له من سنـد عسكـرى إلا قـوة يسيرة من التميميين والجند الخراسانيين ، وكان خصومه كثيرين من العرب البلديين ، الذين لم يوافق أحد منهم على الإقرار له بتلك الرياسة ، وأعلنوا عليه حرباً عنيفة طويلة ، ظلت مستمرة طـوال العصر الأغلبى الذى دام أكثر من مـائة سنة ،إذ ينتهى حكم بنى الأغلب سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م على يد الفـاطميين . ومن أكبر أولئك الخصوم **الحسن بن حرب الكنـدى وعمران بن مجالـد الربعى** ، وقد تمكن إبـراهيم بن الأغلب من القضاء على نفـر كبير من رؤسائهم بعد جهد شـديد ، ولكنه لم يقض على روح التمـرد والعصيـان عليه وعلى آل بيتـه ، التى انتشرت فى رؤسـاء جنـد أفريقية العربى ومن انضم إليهم من العرب الـذين تحولوا إلى عرب بلديين ، وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية . وكان الاتفاق بين الخليفة هارون الـرشيد وإبـراهيم بن الأغلب يقضى بأن يـؤدى إبـراهيم ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف دينار فى السنة ، ويستغنى عن ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف دينـار كانت ترسل من مصر معونة لوالى أفريقية ، فكان كل خراج أفـريقية الذى كان يعود إلى الدولة العباسية ١٤٠,٠٠٠ مـائة وأربعين ألف دينار ، وهـو مبلغ زهيـد جداً ، ولكن إبـراهيم بن

الأغلب اجتهد فى استخراج مال كثير من أفريقيـة ، حتى بلغ إيراده فيما يقال نحو المليونين من الدنانير فى السنة ، وهذا المال كان عماد قوة إبراهيم بن الأغلب . وهذا الفارق الجسيم بين مـا كان الولاة يرسلونـه إلى الخلافة من خراج أفـريقية ، وما كان يتحصل منها فعـلاً ، يعطينا فكرة عن « أمانة » الـولاة فى تلك العصور أو قلة أمانتهم بتعبير أصح .

وقـد اتجه نظر إبـراهيم بن الأغلب مـن أول الأمر إلى إقـامـة قـوة عسكريـة يستطيع الاعتماد عليها ، إذ أنه لم يكن يستطيـع الاعتماد على الجند الخراسانى ، وكان التميميون قليلين ، رغم أنه وفدت منهم ألوف كثيرة إلى أفريقية أيام الأغالبة ولكن خصومه كـانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قبليـة لا تقل عن قواته ، فكان همه الأول هو إنشاء قـوة عسكرية خاصة به بـالمال . وقد تكونت تلك القوة العســـكرية من عنصرين :

(أ) **البربر المستعربة** : الذين عملوا جنداً مرتزقة فى الجيش الأغلبى .

(ب) **ثم الصقالبة** : وهم جند من أصل أوربى كـانوا يشترون صغاراً من تجار الـرقيق الذين يجلبـونهم من أوربـا ويربـون تـربية عـربيـة إسلاميـة ، ويتخذون بعـد ذلك جنـداً وخدمـاً للدولـة فى القصور والـوظائف . وقـد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضـاف إليهم بعد ذلك قوة من السود . ولم يطمئن على حكمـه إلا بعد أن تم لـه إنشاء هـذه القوة ، خلال السنـوات الأولى من حكمه فى أفريقية .

إنشاء القصر القديم :

فى نفس الوقت عمل إبـراهيم بن الأغلب علٰى إنشاء قـاعدة عسكريـة له ولأهل بيته على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين ، الذين كانوا يعيشون فى الغالب منفصلين عن رعـاياهم ، معتمديـن على جندهم المرتـزق ، وقد اختار إبـراهيم بن الأغلب موقعـاً إلى الجنوب الغربى من القيروان ، أنشأ فيه مـدينة صغيرة ، هى فى الـواقع حصن لبيت الحكم ، وسميت المدينة الجديـدة أولاً **بالعباسية** ثم سميت **بالقصر القديم** ، وعندما تمت ، انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده ، وأصبح القصر القديـم قاعدة الحكم فى البـلاد . وعندمـا تم ذلك لإبراهيم أمـن على نفسه

ومصيره ، وسار فى حكمه على طريقة الحكام فى تلك العصور ، أى أنه أصبح معتمدا على جنده المأجور ، ولم تعد له بالبلاد صلة حقيقية إلا الضرائب التى كان رجال الدولة يجبونها من أهل البلاد .

وكان القصر القديم مدينة كاملة ، فيه قصور الأمير وآل بيته ومساكن حواشيه وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش . وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة التى كانت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء . وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس .

أما الجند العربى المعادى لإبراهيم بن الأغلب فقد تركز فى معسكرات فى المدن الكبرى وخاصة فى تونس ، التى تحولت إلى مركز المعارضة السياسية للبيت الحاكم . وطوال العصر الأغلبى نلاحظ أن الحرب كانت مستمرة بين الأغالبة والجند العربى ، وخاصة فى أيام زيادة الله بن الأغلب الذى ارتكب معهم فظائع رهيبة . وعندما انكسرت شوكة العرب كانت قوة البيت الأغلبى أيضاً قد وهنت وقربت نهايته ، وهذا مثال مما حدث كثيراً فى تاريخنا العربى من إهلاك العرب بعضهم لبعض . ومن ظواهر تاريخنا الإسلامى أن العرب لم ينهزموا أمام غير العرب إلا فى النادر ، ولكن الذى أهلك العربى فى كل مكان هو عربى آخر .

ساد البلاد بصورة عامة خلال العصر الأغلبى أمن ورخاء ، وعمرت المدن وأمنت السابلة ورخيت الأحوال وبدأت شخصية أفريقية فى الظهور ، وكثر أهل العلم ، وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

وقد حكم أفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً ، حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت فى بعض الأحيان إلى أقل من العام ، فلم تتسع الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر ، ثم إن أصحاب المذاهب التى تذكر منهم كانوا اثنين : إبراهيم ابن الأغلب الذى تحدثنا عنه ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت ، وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد بن أبى عقال تاسع أمراء البيت الأغلبى . وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً ، إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ، ولكن عصره كان مضطربًا ، اختلت الأحوال أثناءه اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته .

وينقسم تاريخ العصر الأغلبى فى جملته إلى ثلاث فترات : فترة التأسيس من ١٨٤ ـ ٢٢٣ هـ / ٨٠٠ ـ ٨٣٨ م ، وتشمل إمارات إبراهيم بن الأغلب وابنيه أبى العباس وزيادة الله عصر الازدهار والاستقرار النسبى من ٢٢٦ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٤٠ ـ ٩٠٢م ، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بالأول من سنة ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م إلى نهاية حكم أبى عبد الله محمد (الثانى) ثامن أمراء البيت الأغلبى ، الملقب بأبى الغرانيق لولعه بصيدها ، وذلك فى سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م . وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبى من حيث الملكات ، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال أفريقية بصورة عامة .

ويرجع معظم السبب فى ذلك إلى فتح صقلية الذى فتح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على المغانم ، تاركين أمراء بنى الأغلب فى سلام ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد ، معلناً بداية التدهور ، ثم تلى ذلك فترة التدهور وتستمر من ٢٨٩ ـ ٢٩٦ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٩م . ولكن فترة الاستقرار الحقيقية التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزد على ثلاثين سنة على الأكثر . ولكن هذه الأسرة ، على الرغم من قصر مدة الاستقرار فى أيامها ، فإنها تعتبر صاحبة الفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية وظهور شخصيتها بما تميزت به من خصائص ، لأن شعب أفريقية الإسلامية الذى أوجزنا الحديث عن جهاده فى سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء فى نطاق الأمة الإسلامية العامة ، كان فى حاجة إلى فترة استقرار طويلة بعض الشىء ، كى تثبت القواعد الاجتماعية والحضارية التى تمكن من تكوينها والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة وما وقع فيها من الانقلابات وتغير الأحوال . وقد أتاح له بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار ، وأقاموا فى بلاده حكومة محلية ذات طابع أفريقى ، ثم إن بنى الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت ، فكان العصر فى جملته ، رغم كثرة حروبه واضطراباته ، خيراً على أفريقية ، وخطوة واسعة إلى الأمام فى بقاء المغرب الإسلامى .

وقد تكلمنا عن إبراهيم بن الأغلب ، وسنتكلم الآن عن اثنين من أمراء البيت

الأغلبى هما زيادة الله بـن الأغلب وإبراهيم بن أحمد ، إذ لا يتسع المجـال للتحدث عن بقية أمراء هذا البيت .

زيادة الله بن الأغلب ٢٠١ ـ ٢٢٣هـ/ ٨١٦ ـ ٨٣٨ م :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه **أبو العباس** ، ولم تدم له الإمارة طويلاً فجاء بعده أخوه **زيادة الله** . وزيادة الله كـان أميراً قادراً ولكـن مشكلته الكبرى كـانت جنده الـذى استكثر منهم أبـوه إلى درجة زادت على الحاجـة . وتكلف ذلك الجند المال الطـائل ، يضـاف إلى ذلك أن جند البربـر كانـوا قد تكاثـروا مع الزمن وزادوا على الحاجة وثقلت نفقاتهم وبـدأوا يشغبون على الدولة ، فـوجد زيادة الله نفسـه أمام حشـد هائل من الجنـد ، لا عمل لهم فى الحقيقة ورواتبهم فى زيـادة ونوعهـم فى تدهور فكـان لابد لـه من أن يفكر فى مخرج من تلك الأزمـة ، بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود . وتلك هى المقدمة الأولى لفتح صقلية على أيامه .

فتح صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م :

ذكرنا مقدمات ذلك الفتح وقلنا إن الجند تكاثروا عند زيادة الله إلى درجة كان لابـد له معهـا من أن يجد لهم مخرجاً . والحقيقـة أن فتح صقليـة تأخر ، فهـذه جزيـرة كبيرة على أبواب أفريقيـة ، وقريبة مـن سواحل بلاد الإسـلام . وإنه لمن الغـريب أن يفتح المسلمـون الأنـدلس قبل أن يفتحـوا صقليـة بقـرن وربع من الزمـان. ويرجع ذلك إلى أن الفتـوح الإسلاميـة سارت فى الكثير جـداً من الأحيان دون خطـة مرسـومـة ، لأنه كـان ينبغى أن يجىء بعـد تمام فتح أفريقيـة دور صقلية؛ خاصة وأن بينها وبين شواطىء أفـريقية جزراً تعتبر معابر إلى سواحلها مثل بنتلاريـا (جزائر قوصرة عند العرب) وتتبـع إيطاليا ، وكذلك جـزر مالطة ، وكلهـا دخلت فى حـوزة الإسلام مع فتـح صقلية . وكـان تفكير زيـادة الله فى فتح صقلية قـديماً يرجع إلى بـداية ولايته ، فقـد تكاثر جنـده وأصبحوا يسببـون له المتاعـب ، ثم إنه ورث عن أبيـه ملكاً مستقـراً وثروة طـائلة ، فتاقـت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسـلامى ، وكانت أحوال صقلية الـداخلية سيئة تشجع على التدخل فيهـا ، ومـــازال يفكـر فى الأمر ويعـد له حتى إذا كانت سنـة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، رأى زيادة الله ونصحاؤه الشروع فى تنفيذ غزو جزيرة صقلية .

وكانت صقلية فى ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية ، يحكمها بطريق ، أى قائد عسكرى يسمى بيلاتوس، ويعربه العرب « بلاطة » ، يعتمد على قوة عسكرية قليلة . وكان يرهق السكان بمطالبه المالية ، فكانوا فى حالة تذمر عليه وضيق بالحكم البيزنطى كله . أى أن الجزيرة فى الحقيقة كانت منطقة فراغ سياسى .

ولو أن العرب كانوا فى ذلك الحين على قوتهم المعهودة فيهم ، لما استلزم فتح صقلية أكثر من عامين أو ثلاثة ، كما حدث بالنسبة للشام ومصر . ولكن نوع الجند العربى كان قد تغير ، ولذلك فإن جزيرة صغيرة نسبياً كهذه ، استلزم فتحها نحو السبعين سنة ، ومع ذلك فلم يتم سلطان المسلمين عليها بصورة كاملة إلا فى أواخر أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وهو تاسع أمراء ذلك البيت الأغلبى وسنتحدث عنه .

والسبب المباشر الذى جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن قائداً رومياً يسمى يوفيميوس Euphemius (فيمى) ثار على الحكم البيزنطى واستقل بشرق الجزيرة وتحصن فى سرقوسة وأرسل يستنجد بزيادة الله ، فاستجاب لصريخه وعجل بتسيير الجند . وقد دعا زيادة الله بن الأغلب لفتح صقلية جنده الكثيرين فتوافدوا عليه جماعات ، وتجمعوا فى ميناء تونس وميناء سوسة واختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيهاً هو أسد بن الفرات وذلك أمر مستغرب ، لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ، ولكن يبدو أن زيادة الله لم يكن واثقاً من قواده فندب هذا الشيخ أسد بن الفرات . وكان أسد فقيهاً جليلاً ولد سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩م فى العراق ثم قدم به أبوه ـ وكان من رجال الحرب ـ مع القائد محمد بن الأشعث واستقر فى القيروان وهناك نشأ أسد واتخذ طريق العلم فدرس على شيوخ بلده ، ثم رحل إلى المشرق فى طلب العلم سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م فدرس فى العراق على أصحاب أبى حنيفة النعمان ، ثم على أصحاب مالك فى المدينة ، ودرس الموطأ لمالك ، ثم درس على محمد بن القاسم فى مصر ، وعاد إلى القيروان فقيها حسن التكوين ، فدون ما سمعه من الموطأ فى كتاب سماه « الأسدية » انتشر بين الناس ، وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره فى أفريقية . وتولى قضاء القيروان .

وعندما أعلن زيادة الله عن حملة صقلية ، تقدم أسد يطلب التطوع والجهاد جندياً عادياً ، فعرض عليه زيادة الله قيادة الحملة فوافق .

على أى حال كان أسد فى السبعين من عمره عندما جاءته هذه القيادة ، فخرج بالكتلة الكبيرة من القوة الإسلامية من تونس ونزل فى ميناء « مازر » على الساحل الجنوبى لصقلية ، وفى نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت فى ميناء فى أقصى الساحل الجنوبى إلى الشرق يسمى رجوسة ، وذلك لنجدة القائد البيزنطى ، الذى خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين كما ذكرنا . ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا فى موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة .

كان ينبغى على أسد بن الفرات ، بعد أن تمكن من موقع مازر Mazra أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولى عليها ،وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامى للبلاد ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى أجرجنت Agregenta واستولى عليها . ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى على قصريانة(١) ، ثم اتجه شرقا قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين (فيمى) وحاصر سرقوسة ، وفى أثناء الحصار نزل وباء أصاب الجيش وقضى على ألوف من المسلمين ، من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة فمات فى الوباء . وكانت قد أصابته فى القتال جراحات كثيرة ، وكانت وفاته فى ربيع الثانى ٢١٢ / يوليو ٨٢٨ . والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت واضطرب أمر القوات الفاتحة وخرج الحاكم البيزنطى بيلاتوس وهاجم قصريانة ، فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطرهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا فى حصن قريب منها يسمى مناو ، وأصبح مركزهم حرجاً .

وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح وذلك بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذى لم يتبع الخطة المثلى التى جرى عليها

---

(١) Castrogiovanni وتسمى الآن Enna وهى فى وسط الجزيرة وفى الطريق من مازر إلى سرقوسة على الساحل الشرقى للجزيرة Siracusa .

المسلمون إلى ذلك الحين فى فتوحهم ، وهى الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة ، وبذلك تنتهى المقاومة ويتم الفتح . ومن القواعد المعروفة فى العسكرية أن كل حملة لا تصل فى الدفعة الأولى إلى غايتها ، تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتفقد قوتها تبعاً لذلك .

تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف بفرغوش :

بذلك تحرج مركز المسلمين خاصة وأن خيرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة ، هلك معظمهم فى وباء سرقوسة ، ولم يبق فى الجيش إلا الجند الخراسانى ومتطوعة البربر ، ولم يجد المسلمون فى تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها ، فظلوا متحصنين فى بلدة مناو فى انتظار المدد الذى طلبوه من زيادة الله بن الأغلب ، وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين فى صقلية حرجاً .

فى هذه الظروف نفاجأ بدخول نفر من الأندلسيين جزيرة صقلية ، يقودهم قائد كبير يسمى أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش . ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة ، أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة بين الإسلام والنصرانية فى الجزيرة فأسرعوا لعون إخوانهم . على أى حال نجد أن أصبغ أسرع وهاجم الصقليين والروم المحاصرين لمناو ، وفك حصار المسلمين ، وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامية . واتجه المسلمون ، رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغالبة ، إلى قصريانة وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبغ نحو بلرم وحاصرها واستولى عليها ، وهنا وللمرة الثانية نجد أن الوباء ينزل الجزيرة ويصيب معسكر المسلمين ، وبعد أن تمكن أصبغ بن وكيل من دخول بلرم يصيبه الوباء ويموت شهيداً بعد ذلك بأيام ، وبذلك أتيحت الفرصة أمام البيزنطيين ليستعيدوا قصريانة ويتحرج مركز المسلمين مرة ثانية ، ولكن زيادة الله بن الأغلب تمكن من إرسال قائد جديد .

هذا القائد هو أبو فهر الأغلبى ، وقد قاد المسلمين بنجاح ودخل بلرم وطرد بقية القوة البيزنطية فى الجزيرة ثم توفى ، وتولى بعده أخوه أبو غالب فأتم

الاستيلاء على العاصمة ، وفى تلك الأثناء مات زيادة الله بن الأغلب ، ووصل الخبر إلى صقلية فكادت الحملة تفشل مرة ثالثة . ولكن أبا غالب تمكن من السيطرة على الموقف ، واستقر الأمر للمسلمين فى النصف الغربى من الجزيرة ، وبقى عليهم أن يفتحوا شمالها ونصفها الشرقى . وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً ، وفقد حماس المسلمين فلم يتمكنوا من السيطرة على شبه الجزيرة إلا فى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى كما سنرى .

وبينما تعاقب القادة والولاة على الجزيرة تمكن المسلمون من التقدم فى الشمال والشرق ببطء شديد ، وكانت جماعات المسلمين تهاجر إلى الجزيرة وتستقر فيما فتحه المسلمون فيها ، فنشأت فى كل مدن الوسط والغرب جاليات إسلامية كبيرة ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الصقليين وبعض من بقى فى الجزيرة من الروم ، أى أن عملية دخول صقلية فى دعوة الإسلام سارت فى طريقها رغم كل شىء .

وكانت العاصمة الرسمية لصقلية الإسلامية مدينة بلرم ، نظراً لجودة مينائها وحصانة أسوارها . ولكن مركز النشاط والعمل كان فى مدن الشرق والوسط وخاصة مازر وجرجنت وقصريانة فى وسط شبه الجزيرة ، وقد انتشر المسلمون فى نواحيها وعمروها ، وعمروا كذلك معظم مدنها مثل مازر وجرجنت ورجوسة وسرقوسة وبعض مدن الساحل الغربى مثل بتشينة وقطانية وميقش وطبرمين ومسينا التى تسمى جبل النار نسبة إلى بركان أتنا الذى يقع إلى جوارها .

وعلى الرغم من أن الأمر فى صقلية لم يستقر للمسلمين تماماً إلا خلال فترة قصيرة ، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئاً فشيئاً إلى بلد إسلامى تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ، الذين دخلوها . ولكن الصقليين دخل الكثيرون منهم فى الإسلام واستعربوا وأنشأوا حضارة إسلامية فى صقلية ، وما زالت آثارهم فيها باقية إلى اليوم ، فى هيئة قصور وبقايا مساجد وحصون ولكن الأثر الأكبر لصقلية الإسلامية هو العمل الحضارى . فقد تحولت بلرم كما قلنا إلى مركز علم عربى . وفيها عاش وعمل - بعد سقوط صقلية فى يد

النورمان ــ الجغرافى المشهور « **الشريف الإدريسى** » الذى كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر فى مقدمة كتابه « **نزهة المشتاق** » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليابس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أى أنه حَوَّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافى الإنجليزى مركاتور فى القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التى ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التى كان الإدريسى أول من تنبه إليها وطبّقها . ثم وصف الإدريسى كرة الأرض وخريطتها التى رسمها فى كتابه المشهور « **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسى بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافى مفصل للكرة الأرضية .

وفى أثناء حكم **أبى العباس محمد بن أبى عقال الأغلبى** سنة ٢٢٦ ـ ٢٤٢ هـ / ٨٤١ ـ ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى الذى سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطىء الشرقى للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافى **اليعقوبى** « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » فى العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة فى القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التى هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أى قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفى فى ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٣ يونية ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى فى أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته فى مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطرة فى تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله فى النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يؤخذ عليه إلا العنف فى معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملأه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى فى يوم الميعاد وفى صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب فى الأمر أنه لم يذكر فى حسناته التى سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر فى قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغالبة جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر فى حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلى والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً فى سبيل الله وهو محاصر مدينة كشنته ، فى شبه جزيرة كلابربا فى جنوبى إيطاليا ، وهو فى الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزانة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً فى المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرآنى من الآية التى تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة فى كل مدن السواحل فى أفريقية وصقلية حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة فى تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى جنوبى القيروان مدينة رقادة، وهى مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

الماء . ومن هـذه الصهاريج واحـد سمى البحر ، طـوله خمسمائة ذراع وعـرضه أربعمائة ، وإليه ينسب الماجل العظيم كما يسمى ، والجمع مـواجل ، والماجل هو حوض ماء يبنى بالحجر ليتجمع فيه مـاء المطر ، وما زلنا نرى فى خارج القيروان إلى يومنـا هذا مـواجل الأغالبة . وهى من أجمل آثـار البلاد ، وقـد اكتملت فى أيام إبراهيم بن أحمد سلسلة المحارس على الشواطىء . وكانوا ينشئون فى كل محرس برجاً للنـار لإرسال الإشارات ، فكان الخبر يصل إلى أقصى البـلاد من بجاية على الساحل الشمالى لجمهـورية الجزائر الحاليـة حتى طرابلس فى أقل من ليلـة . أما بالنهـار فكانت الإشارات ترسل بـالدخان ، فكانـوا يوقدون فى النواطير أخشـاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يُرَى من بُعْد .

بعد ذلك نجد أن هذا الرجل يصاب بمـرض عصبى تختل معه أعماله ونظرته إلى الأمور . والمؤرخون يقولون إن « دماغه جفت » وهو تعبير غير مفهوم ، والمهم أن ذلك الرجل امتنع عليـه النوم وزادت مخاوفه ، فأقبل يقتل النـاس لأقل ريبة ، وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنـوات حتى خافه الناس وقـرروا خلعه ، وبعثوا إلى الخليفة يشكـون من أعماله ويطلبون عـزله ، ولكنـه تنبه لنفسه شيئـاً فشيئاً قرب نهاية حكمه . ويبدو أن الذى نبهـه هو الخطر الفاطمى ، ففى ذلك الحين كان أبو عبـد الله الشيعى داعى الفـاطميين قد ثبت أقـدامـه فى منازل قبيلـة كتامـة التونسية ، وبـدأ يغير على بلاد الأغالبة فخاف إبـراهيم بن أحمد وعاد إلى رشده ، وأصلح من أمر نفسه واجتهد فى لم شعث إمارته .

ولكن الخليفة العباسى أرسل إليه أمراً بالنـــــزول عن الحكم وتوليـــة ابنه أبى العباس عبد الله مكانه .

حضارة أفريقية والمغرب أيام الأغالبة :

قلنا : إن بنى الأغلب كانـوا تجربة جديدة فى حكم ولايات الدولـة العباسية ، وإن كانت استمراراً لتجربة آل أبى حفص عمر بن قبيصة المهلبى ، وإلى حد ما تعتبر التجربة ناجحة ، فخلال القرن من الزمان تقريباً الذى دامته دولة الأغالبة ، تقدمت البـلاد تقدماً كبيراً محسـوساً ، وازدهرت المدن وأخـذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية ، فازدانت بالمساجد والمنشآت

العامة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار الناس وما إلى ذلك .

وإذا كان العصر الأغلبى قد بدأ سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠ م والبلاد فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب البلديين ، فقد انتهى والبلاد موحدة تحت لواء السنية ، فلا نجد الخوارج إلا فى أقصى الطرف الغربى لبلاد الأغالبة بل فى إقليم تاهرت فى المغرب الأوسط ، ولم يكن داخلاً فى دولتهم ، وكذلك كانت هناك جماعات إباضية صغيرة فى بعض نواحى طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ، ولكنها لم تعد تشكل متاعب أو مصاعب للحكام .

وقبل الأغالبة لم تكن هناك شخصية واضحة لأفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما فى ذلك القيروان ، والمدينة الوحيدة التى كان لها طابع مدينة هناك كانت تونس التى احتلت بسرعة مكان قرطاجنة فقد كانت فيها مبان ودار صناعة وأسواق . وكان أهلها من الجند العرب يشعرون بامتيازهم دائماً ويرفضون الخضوع للقيروان .

وقد كان لبعض المهالبة اهتمام بالأبنية والمنشآت . وكان ليزيد بن حاتم دور كبير فى تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها ، وكذلك اهتم هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ، ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية والمغرب الأوسط .

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجدى القيروان وتونس الجامعين ، وهما مسجد عقبة ومسجد الزيتونة ، وإعطاؤهما صورتهما الباقية إلى اليوم . وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناه عقبة بن نافع بناء بدائياً ، ثم جدده حسان بن النعمان وأكمله حنظلة بن صفوان ، ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية ، كان زيادة الله بن الأغلب ، فقد أنفق فى ذلك مالاً جزيلاً طوال سنوات كثيرة . وكان يقول : « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى حصن مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء أفريقية » . وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة فى جامع

تونس الذى كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بناه سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢م ، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلبى ، فهو الذى أعطاه صورته البديعة التى يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزيَّنه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، وهذا الرجل هو الذى أمر ببناء القبة الكبيرة فى جامع القيروان ، وهى من أجمل القباب فى تاريخ المساجد .

وكان الذى بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية فى أفريقية . أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط فى أفريقية ، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها ، ويذكر لهم التاريخ دارين عظيمين للصناعة : إحداهما فى تونس والأخرى فى سوسة ، وقد كتب كل من الدارين صفحات مجيدة فى تاريخ النشاط البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط .

ومن نماذج المنشآت العسكرية فى عصر الأغالبة الرباطات ، وهى شبيهة بالقصور التى ذكرناها ، ولكنها كانت تخصص للمجاهدين والمرابطين ، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد ، وحاميات رسمية ، ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات .

ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقى لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة ، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب . وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر ، وطول ضلع سوره ٤٠ متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات ، مرفوعة على عمد ، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدى بعضها إلى بعض ، وهى تستعمل للنوم والأكل ، ويليها صحن الرباط ، وهو مساحة واسعة مسورة

تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهى تفتح أو تطل على صحن الرباط وفى ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط .

وشبيه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة ، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة ، والرباط طابقان يخصص الثانى للحراسة والعبادة ، وفى العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذى يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

وفيما يتعلق بالعمارة المدنية أشرنا إلى مدينة القصر القديم التى بناها إبراهيم ابن الأغلب على نحو ٦ كيلو مترات جنوبى القيروان ، لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ، وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة . ولم يبق من آثار هذه المدينة شىء ، وكانت قد سميت بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً لها عن القصر الجديد ، وهو مدينة رقادة التى بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ/ ٨٧٨م وقد ذكرناها .

وكانت لبنى الأغلب عناية ببناء صهاريج المياه وجبابها ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا فى باطن الأرض ، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متراً وعمقها نحو العشرين، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المطلى بالبلاط الذى لا تؤثر فيه المياه ، وقد بطن بالرخام ، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك ، فإذا اكتمل جعلوا له سلالم تؤدى من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء فى الغرفة أو القبو السفلى عند الماء ، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء ، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما عدا المداخل وفتحات السلالم . وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات فى السقف تشبه الآبار ، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء جمع دلو ، أو يهبطون بأنفسهم بالسلالم.

وأكثر الأغالبةُ كذلك من بناء المواجل وهى أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات ، ويتجمع فيها ماء المطر ، وهى دائماً مكشوفة وقد يقام فى وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة ، ومواجل القيروان وتونس وسوسة تعتبر من

الآثار الجميلة التى تستحق المشاهدة . ويطيل المؤرخون الحديث عن القصور والمنشآت التى بناها **إبراهيم بن أحمد الأغلبى** فى مدينته المسماة « رقادة » ويقولون: إن قصراً منها كان يسمى بغداد وآخر يسمى المختار . وفى هذه المدينة الملوكية أنشأ زيادة الله بن أبى العباس عبد الله ، وهو المعروف بزيادة الله الثالث ، وهو آخر الأغالبة ، بركة أو ماجلاً ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة . وأجرى إليه الماء بالسواقى ، وسُمِّى هذا الماجل الفسيح بالبحر ، وأنشأ على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه « العروس » وأنفق فى إنشائه ٢٣٢,٠٠٠ دينار ، وما كاد القصر يتم وينتقل إليه ، حتى رحل عنه هارباً إلى مصر ، فقد كان أبو عبد الله الشيعى ، داعى الفاطميين ، قد استولى على معظم بلاد الأغالبة ، وعندما استولى على الأربس على بعد أميال قليلة من القيروان ، ترك هذا الأمير بلاده وملكه ومضى ، ولم يكن يستحق الإمارة على أى حال ، فقد تولى العرش بمؤامرة دبرها ضد أبيه وقتله ليرث ملكه .

الحياة الاجتماعية والفكرية فى عصر الأغالبة :

لا بد أن نلاحظ أن ما تحدثنا به المراجع من الثورات والحروب الداخلية التى امتلأ بها تاريخ الأغالبة ، لم تكن تمس الحياة العامة للبلاد إلا فى حالات قليلة ، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون ، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية فى طريقها ، دون أن تعطى اهتماماً كبيراً للمنازعات والمنافسات ، بين أهل الحكم أو أهل الحرب ، إلا فى حالة ما إذا دار القتال فى المدن أو فى المزارع ، ونستطيع أن نقول : إن حياة الناس فى المدن والأرياف سارت فى طريقها ، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التى سادت طوال العصور الوسطى ، ولكنها سارت بصورة ما ، فأخذت حياة الناس فى ذلك المجتمع الأفريقى طريقها وصورها التى ثبتت عليها بتوالى الأجيال .

ومن خلال تفاصيل كثيرة ، وردت إلينا فى تراجم العُبَّاد والزهاد والفقهاء وأهل الفكر وتراجم الشعراء وأهل الأدب ، ثم حوليات التاريخ نرى كيف انتظم المجتمع الأفريقى فى القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وغيرها ، على نحو يشبه

ما نعرف فى المجتمعات الإسلامية فى تلك العصور ، وتحمل فى نفس الوقت الطابع المميز للبيئة الأفريقية .

هنا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيروانى محلى ، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من المياسير وأهل الصناعة ، ونرى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب ، وقامت فيها حلقات الدرس فى المساجد ، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفى هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير فى العالم الإسلامى كله من أمثال **أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبى عثمان سعيد بن الحداد** وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً .

وهؤلاء الشيوخ كانوا فى نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بنى الأغلب رغم حياتهم الطويلة فى أفريقية ، لم يصلوا أبداً إلى الاندراج فى حياة البلاد ، وظلوا منعزلين فى عواصمهم الملوكية مثل القصر القديم والقصر الجديد المسمى أيضاً « رقادة » ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وهؤلاء بدورهم ما كانوا ليتصلوا بالحكام إلا فى حالة الضرورة القصوى ، لأنهم بصفة عامة كانوا يرون أن أهل الحكم ظالمون فى جملتهم وأموالهم حرام ، ولا ينبغى للرجل التقى أن يصيب من هذا المال . ولهذا كثر اعتذار الفقهاء عن تولى القضاء ، وفى أكثر من حالة نجد رجال الشرطة يقودون الفقيه إلى المسجد ويرغمونه على القيام بالقضاء .

وهنا تبرز شخصية **سحنون** واسمه الكامل أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخى ، فقد كان رجلاً لبقاً ذكياً ينتسب إلى بيت عريق وتصدَّر للإفتاء والتدريس فى جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وكان ذا مكانة عالية عند الحكام ، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأول وتوفى سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٨ م وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبابرة ، وتعرَّض

للأذى على يد **زيادة الله الأول** الذى اشتدت محنة خلق القرآن فى أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بـامتحان القضاة ، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولـون بخلق القرآن ، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب ، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم ، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتـزلة ، وقد تولى سحنون ـ الذى ولى القضاء بعد المحنة ـ الانتقام من عبد الله بن أبى الجواد القاضى الأسبق الذى امتحن القضاة وآذى بعضهم ، فجلده حتى مات . وقد ندم سحنون على ذلك ندماً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبى الجواد إلى آخر أيامه .

وإلى سحنـون ينسب أحسن تـدوين عُرِفَ للسماع عن مـالك بن أنس وهـو المعروف « بالمدونة » ، وهى كتاب فقـه على المذهب المالكى ، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبـادات والمعاملات عرضاً بليغاً ومـوجزاً فى نفس الوقت . وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامى .

وكان طـلاب العلم كثيرين ، والكثيرون منهم كـانوا من أبنـاء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الضياع ، وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهـد ، ومع أننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فـاخرة كما نجده فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر ، إلا أن الرخاء كان سائداً والخير وافراً ، فلا نسمع عن مجاعات أو فقر شديد إلا فى النـادر ، وذلك يرجع إلى وفرة الأرض الزراعية فى أفريقية وقلة السكان .

وكان النـاس يزرعـون كثيراً من الزيتـون والقمح والفول والشعير ، وكـانت المزارع متسعـة وآمنـة ، ونسمع كثيراً عن المحـاصيل وأسعـارهـا فى القيروان وتونس. وقد اشتهـرت أفريقية فى ذلك العصر ، وكل عصر ، بالزيتـون والفواكه ، ونخـرج من ذلك بأن الحالة العـامة كـانت رَخيَّة ، ولـدينا كـذلك ما يـدل على أن مصانع النسيج كـانت نشيطة وزاهرة فى مدن أفـريقية كلها ، وأن أفريقيـة كانت تسير رغم كل شىء فى طريق تقـدم فكرى ومـادى محسوس ، فكان هنـاك أطباء ذوو مكانـة كبيرة ومستشفيات تسمى « بالـدمنات » ، وكان النـاس يتبرعون لها بالمال الكثير وكذلك كانت عناية الدولة بها كبيرة .

وتدل الإنشاءات الكثيرة التى ذكرناها على أن الهندسة والعمارة كانتا فى مستوى رفيع ، وفى نهاية العصر الأغلبى ، وخلال حكم إبراهيم بن أحمد بالذات أصبحت القيروان من عواصم الفكر والحضارة فى العالم الإسلامى .

ولا نعلم شيئاً عن الأحوال الاجتماعية فى الناحيتين الأخريين اللتين تكونت منهما دولة بنى الأغلب وهما طرابلس وبلاد الزاب ، فالأخبار قليلة أثناء ذلك العصر عنها ، ولكن صورتها ستتضح فيما بعد ، أى خلال القرن الخامس ومابعده بفضل كتابات رحالة كثيرين أولهم **اليعقوبى** ثم ابن **حوقل النصيبى** .

والخلاصة أن العصر الأغلبى على قصره يمثل فترة انتقال حاسمة فى تاريخ أفريقية ، فقد انتقلت أفريقية من قطر مضطرب غير واضح المعالم ولا محدد التكوين البشرى والفكرى ، إلى بلد واضح المعالم والسمات ، له مدنه الزاهرة ومدائنه العامرة تزينها المنشآت الكثيرة ، وله ريفه الفسيح الذى ينتج غلات وفيرة ، وسكانه الأفريقيون الذين نتجوا عن اختلاط العرب والبربر ، وممن كان يفد باستمرار من الخراسانيين والأندلسيين ، وظهروا من أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) شعباً إسلامياً عربياً مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامى فى عصره الذهبى .

دولة الرستميين فى تاهرت :

الطريف فى تاريخ المغرب الإسلامى أنه يقدم لنا سلسلة من التجارب فى ميدان الحكم والتنظيم ، لا نجدها فى غير المغرب من بلاد الإسلام . وقد رأينا كيف أن كلاً من دولة المهالبة وبنى عبد الرحمن بن حبيب والأغالبة كانت تجربة سياسية تختلف كل منها عن الأخرى أكبر اختلاف ، كذلك سنرى أن تجربة الرستميين فى تاهرت ، لم تكن شيئاً جديداً فعلاً فى تاريخ المغرب فقط ، بل فى تاريخ الإسلام العام ، فللمرة الأولى نجد أنفسنا أمام تجربة إقامة إمامة إباضية خارجية ، فقد كان الخوارج ينادون دائماً بالدولة المثالية ، وكانوا يسمونها إمامة لا خلافة ، لأن الخلافة فى نظرهم غير شرعية ، لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه . وإنما تحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها ، إماماً يقودها فى طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية . وكانوا ينتقدون

غيرهم من المسلمين لأنهم ينشئون دولاً تخالف - من حيث التكوين والروح - ما يقضى به الإسلام . ثم جاءت فرصتهم عندما أتيحت لواحد منهم وهو **عبد الرحمن بن رستم** الفرصة لينشىء دولة مستقلة على المبادىء الإباضية . وسنرى كيف سار فى بناء هذه الدولة وبأى نتيجة خرج .

تنسب الخارجية الإباضية إلى **عبد الله بن إباض التميمى** ، وكان ينادى بمذهب الإباضية الذى يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة .

لم يستطع عبد الله بن إباض أن يحقق حلمه فى إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضى فى المشرق ، ولكن أحد تلاميذه ، وهو **سلمة بن سعيد** ، ذهب إلى المغرب وتبين أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضى فيه ، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها فى المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر شلف ، وفيما يلى ذلك إلى المحيط ، كانت بلاداً لا يحكمها فى الحقيقة حاكم ، وإنما استبد بأجزاء منها حكام من رؤساء البربر المستعربة أو العرب البلديين . الذين وصلوا إلى هناك واستقروا واندرجوا فى أهل البلاد . ومعنى ذلك أنه كان هناك فى الجناح الغربى لدولة الإسلام فراغ سياسى يتيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من المتحمسين لإنشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بنى العباس ، كذلك لم يكن لخلفاء بنى العباس أو ولاتهم سلطان على جبل نفوسة ، وهو منطقة جبلية واسعة جنوبى طرابلس . وكان جبل نفوسة جبلاً واسعاً حصيناً وعر المسالك كثير الزروع ، تشبثت به جماعات من الخوارج الإباضية ، وقد أشرنا إلى ما كان من صراع بينهم وبين المهالبة أولاً ثم الأغالبة ، وذكرنا كذلك كيف أن زعيمهم **أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى** تمكن ، فى سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م ، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاثوا فيها فساداً ، عندما دخلتها قبيلة ورفجومة الصفرية فنهض أبو الخطاب وتمكن من طرد الصفرية من القيروان وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملاً ، ثم عاد إلى بلاده فى جبل نفوسة .

ولكن الدولة العباسية أرسلت فيما بعد قوة عسكرية ، يقودها **محمد بن الأشعث** ، استطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية قرب تاورغا قريباً من صرت ،

سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١م واستطاعت أن تخرجهم من القيروان وتقتل أبا الخطاب . فَفَرَّ عبد الرحمن بن رستم ومن معه غرباً ، وعبروا نهر شلف ووصلوا إلى منطقة جبلية تقع إلى الجنوب من الجزائر الحالية ، وهناك ثبتوا عند بلدة حصينة وسط الجبال ، تسمى تاهرت . ووجدوا أنه لا يوجد هناك حكام أو نظام حكومى يقف عقبة فى سبيلهم ، إنما كانت هناك القبائل البربرية تعيش عيشتها الحرة البسيطة التى عاشتها من آلاف السنين رغم إسلامها . وكانت هذه القبائل حسنة الإسلام ، ولكنها كانت فى حاجة إلى من يوحد بينها ويقيم بمعاونتها نظاماً سياسياً مستقلاً عن طاعة الدول الكبرى ، فرأى عبد الرحمن بن رستم أن ينشىء هناك الإمامة الخارجية الإباضية التى طالما حلم بها ، وعمل رجاله على نشر المذهب الإباضى فى هذه النواحى ، فتكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة ، وبالفعل ، أخذ عبد الرحمن بن رستم ينشىء دولته على المبادىء الإباضية .

وعبد الرحمن بن رستم من أصل فارسى كما تقول المراجع . فقد كان أبوه بهرام من موالى عثمان بن عفان ، ونشأ هو نشأة عربية إسلامية ، فدرس فى البصرة ، وهناك أخذ المبادىء الإباضية وانضم إلى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، وانتهى به الأمر إلى المغرب حيث أصبح الذراع الأيمن لأبى الخطاب . وبعد موت هذا أصبح هو الإمام المعترف به للإباضيين فى المغرب .

كان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختياراً سليماً ، لأن هذه البلدة كانت تقع وسط الجبال ، فلا يمكن الوصول إليها من ناحية الغرب أو الشرق بسهولة ، فكانت حصينة من هاتين الناحيتين وآمنة من أى غزو من هذه النواحى ، ثم إن المدخل إليها من الجنوب كان سهلاً ، أى أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحاً يُمكِّن أهلها من الاتصال بالإباضية فى جبل نفوسة ، والاعتزاز بالقبائل الصحراوية الكثيرة التى كانت تتخذ هذه الجبال مصيفاً ونواحى الصحراء مشتى لها . ومن المعروف أن القبائل البادية تقضى الشتاء فى الوديان ، حيث الجو دافىء والأعشاب والمياه متوافرة ، فإذا جاء الصيف صعدت بقطعانها إلى الأعالى هرباً من الحر الشديد ، والتماساً لأراض يكون فيها ماء وعشب . ولم يقتصر الأمر فى ذلك على قبائل البربر ، بل إن قبائل العرب أيضاً كانت لها مصايفها ومشاتيها فى حدود مجالاتها .

ولكن تاهرت كانت صغيرة وكان عبد الرحمن فى حاجة إلى حصن كبير ، فصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفسحاً من الأرض وافر المياه ، وأخذ ينشىء مدينة جديدة هى تاهرت الجديدة ، وبناها على ضفة نهير غزير المياه ، وحصَّنها بأسوار ، وأنشأ فيها مسجداً جامعاً ، وأقام إمامة إباضية ، أى جماعة إسلامية تحكم بناء على مبادىء الإباضية من الأخوة والمساواة التامة بين أفراد الجماعة والتقى ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

كان الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل التى دخلت مفهوم هذا المذهب ، ويقول الشماخى وهو مؤرخ الإباضية فى المغرب: إن الناخبين راعوا أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهى :

١ ـ **الفضل** : ويراد به العدالة ، وهى عند الإباضية جماع صفات الكمال الأخلاقى ، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس .

٢ ـ **العلم** : إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه ، شرط أساسى من شروط الإمامة عند الإباضية ، ويعرفونه بأنه العلم الذى يوصل إلى مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة .

٣ ـ **الوصية** :ويراد بها إيصاء الإمام القائم بمن يخلفه ، ولا تكون هذه الوصية فرضاً ملزماً للاتباع ، وإنما هى توجيه ، وقد قلدوا فى ذلك ما فعله أبو بكر قبل موته عندما أوصى لعمر رضى الله عنهما ، وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبالفعل كان إمام الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى . وكان عليه أن يستشيرهم فى كل ما أهم الإمامة من الشئون ، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد .

٤ ـ **ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده** : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية فى فرض سلطانه على الناس ، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لابد أن يتم على أساس الشورى ، أى حرية الرأى والاختيار . فإذا توفى الإمام أو شغر منصبه لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحوا نفراً منهم ، ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحداً منهم إماماً ،

والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق ، ولا هى ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق .

هكذا قامت تجربة سياسية جديدة فى تاريخ المغرب والإسلام ، وهى تجربة إقامة دولة على نظام يمكن أن نسميه جمهورياً ، نعم ، لقد حاول الإباضية قبل ذلك إقامة إمامة فى عُمَان ، ولكن الأمر هناك لم يَجْرِ على تلك الدقة المذهبية التى جرى عليها **عبد الرحمن بن رستم** وأصحابه . وبالفعل انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً على هذه الأسس ، وسار فى الناس بالعدل ، واهتم كثيراً بشئون الدين كما ينبغى أن يكون ، لأن عبد الرحمن بن رستم كان رجلاً صادق التقى والورع واسع العلم ، وقام بحماية جماعته وإشاعة العدالة فيها ، فتوافد الناس على تاهرت من كل ناحية ، فكبرت وعظم أمرها ، ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين إليها ، وكان لكل جالية حى من أحياء البلد ، فهناك الكوفيون والبصريون والمصريون والقرويون أى القيروانيون والأندلسيون وما إلى ذلك ، وكلهم كانوا يعيشون فى أمان ويعملون بنشاط فى ظل عبد الرحمن ، الذى كان فى الحق إماماً وقائداً صالحاً يتميز بسعة العلم والحلم وعمق الإيمان . فنجحت تجربته . ولكن عمره فى الإمامة لم يطل ، إذ توفى بعد ثمانى سنوات من الحكم سنة ١٦٨ هـ/ ٧٨٤م وكان قد أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عيَّنهم بأسمائهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب . وبعد مناقشات طويلة بين أفراد تلك الهيئة ، انحصر الاختيار بين **عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسى** ، ثم انسحب مسعود وبقى عبد الوهاب فتولى الإمامة .

هكذا وبصورة طبيعية إلى حد كبير ، غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى ، وربما كان عبد الوهاب أصلح الباقين ، ولكن كونه ابناً للإمام السابق هو الذى رجح كفته . ويقال كذلك أنهم هددوا مسعوداً الأندلسى ليرغموه على الانسحاب . ومعنى ذلك أنه على الرغم من تحمس الإباضيين لمبدئهم وإنكارهم على غيرهم الأخذ بمبدأ الوراثة فى ولاية أمور المسلمين ، رغم ذلك أخذوا بمبدأ الوراثة ، وفى الواقع كانت تلك طبيعة العصر وأخلاق أهله ، لأن اختيار الإمام على مبدأ الشورى أى الانتخاب كان يتطلب نضجاً سياسياً بعيداً عن روح العصر ،

ومن ناحية أخرى كان مبدأ الوراثة متأصلاً ، من أحقاب متطاولة ، فى نفوس الناس واتباعه أيسر عليهم .

وكان من الطبيعى أن ينشق فريق على الإمام الجديد ، منكراً عليه الوصول إلى الإمامة عن طريق الوراثة ، فنشأت فرقة تسمى « النكارية » أى المنكرين لإمامة **عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم** ، وفرقة تسمى « الوهبية » أى أنصار عبد الوهاب ، وقام الصراع التقليدى على الحكم ووقعت الحرب ، وانتهت بمقتل قائد النكارية على يد **أفلح بن عبد الوهاب** ، وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء المثاليين على مسألة وراثة الحكم . ولم ينته أمر النكارية تماماً بهزيمتها ، بل بقيت منهم جماعات متفرقة فى القبائل ، ومن بين هؤلاء سيظهر **أبو يزيد مخلد ابن كيداد** الثائر الإباضى النكارى على خلافة الفاطميين فى المغرب .

وسارت الأمور فى دولة الإباضية فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من إباضية جبل نفوسة ، سيراً وسطاً بين الالتزام بمبادىء المذهب والانحراف عنه ، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم . وأصيبت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة ، الذين أقاموا على أنفسهم إماماً من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية ، وطبَّق إباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضاً ، وقد لقى منهم أفلح بن عبد الرحمن بن رستم عنتاً شديداً ، ولكن جماعتيهم فى تاهرت وجبل نفوسة استمرتا تغالبان المتاعب والازمات دهراً طويلاً ، وانفصلت منهما جماعات إباضية أخرى ، مراكزها فى جزيرة جربة وغدامس ووارکلا . وفى كل موضع من هذه قامت إمامة إباضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها ، وتحولت مع الزمن إلى وحدات اجتماعية واقتصادية ذات علاقات خاصة بين أفراد بعضها وبعض ، وما زالت بقايا الإباضية إلى يومنا هذا فى إقليم الزاب جنوبى الجزائر .

وكان آخر الأئمة هو **أبو اليقظان محمد بن أفلح** الذى توفى سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٣ م وحكم ٤٠ سنة انتهت سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٤ ـ ٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ، ولكن الدولة تناقصت قوتها فى أيامه ، ومعنى ذلك أن التجربة الإباضية لم توفق إلى تحقيق المثل الأعلى للحكم الذى كانت تتصوره ،

وإن كان ينبغى أن نقول : إن حكمهم فى إقليم تاهرت ، كان حكماً عادلاً نسبياً وأن أحوال الناس فى جماعتهم ، كانت أسعد بكثير من أحوالهم فى ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم .

وقد دامت دولتهم قرناً ونصفاً على وجه التقريب ، وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك ، لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل . وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التى اجتثت كل دول المغرب القائمة فى عصرها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م . وكان الذى قضى على دولة تاهرت **أبو عبد الله الشيعى** ، الذى مر فى طريق عودته من سجلماسة بتاهرت ، وخرَّبها وقضى على آخر بنى رستم ، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لأفريقية .

وكان للإباضية دور كبير فى إنعاش التجارة فى المغرب الأوسط وبلاد الصحراء ، فقد ضمت جماعة الإباضية كثيراً من التجار الذين وجدوا الأمن فى ظل الأئمة . ولهذا تحولت تاهرت إلى مركز تجارى نشيط خلال القرن الهجرى الثالث / التاسع الميلادى ، فكانت قوافل التجار تدخل من تاهرت وتتجه جنوباً حتى تصل إلى واحة الأغواط فى جنوب الجزائر الحالية . ومن ثم يتجه بعضها شرقاً إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس ، ويتجه بعضها الآخر إلى «واركلا » أو « ورجلا » وكانت مركزاً تجارياً كبيراً على أبواب الصحراء الكبرى . ومن هذا نفهم كيف تحولت واركلا الى مركز كبير من مراكز الإباضية ، ومن هناك كانت القوافل تتجه إلى إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة ، وهى واحة كبيرة جنوبى منابع نهر المولوية . وفى واحة تافيلالت التى كانت بداية الطريق التجارى الكبير الذى يعبر الصحراء إلى أفريقية المدارية قامت جماعة خارجية أخرى . فى هذه الواحات ـ واحات تافيلالت ـ قامت دولة أو إمامة خارجية صفرية متشددة ، أقامها قبيل من البربر المستعربة وأهل السودان ، يعرفون **ببنى اليسع بن مدرار**. وعلى الرغم من أن خوارج سجلماسة كانوا صفرية ، أى خوارج متشددين، إلا أنهم كانوا يتعاملون فى حرية مع تجار الإباضيين ، الذين كانوا يفدون عليهم من تاهرت . ومن المعروف أن جماعات التجار متسامحة فى موضوع المبادىء

المذهبية لأن الذى يهمهم هى متاجرهم ، ولهذا فقد قام تعاون وثيق بين إباضية تاهرت وإباضية تافيلالت حتى لقد تصاهر بنو رستم وبنو مدرار . أما العلاقات التجارية فكانت وثيقة جداً بين الجماعتين وغيرهم من جماعات الخوارج فى الصحراء . ومن هنا فإننا نجد أنه كان للخوارج فى أفريقية الشمالية أثر كبير فى انتشار الإسلام لأن التاجر السودانى ، الذى كان يريد أن يدخل فى معاملات تجارية مع الإباضية ، كان يجد أن الأفضل له أن يدخل الإسلام على مذهب زملائه التجار . ولهذا قلنا : إن جماعات الخوارج تحولت فى المغرب الإسلامى إلى تحالفات تجار واتفاقات مصالح وروابط اجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن جماعات الصوفية .

ومن الملاحظ أن جماعات المنضمين إلى مذاهب صغيرة قليلة الأتباع ، تتحول إلى جماعات مصالح تجارية ومالية ، وتصبح هذه الجماعات أقليات ووحدات اقتصادية مقفلة على أصحابها ، فهم يتاجر بعضهم مع بعض ويأتمن بعضهم بعضاً ، لأن رئيسهم وهو الإمام ، يحرص على أن تقوم العلاقات بين أفراد جماعته على أساس الأمانة والصدق فى المعاملة . ولا غرابة إذن أن نجد أن قوافل التجار الصادرة من مراكز الإباضية ، التى أشرنا إليها ، أنشأت فى الصحراء الأفريقية كلها شبكة من المراكز التجارية النشيطة ، ومعظمها خارجية إباضية فى الغالب . وفى كل واحة من واحات الصحراء كان الإباضية يقيمون زاوية ، والزاوية كانت مسجداً فى أساسها ولكنها كانت تستعمل مركزاً لتلاقى التجار ، وتستخدم كذلك خانات أو فنادق للمسافرين هناك ، وفى صحن الزاوية كان التجار يقضون الليل ويقومون بمعاملاتهم التجارية . وكان لكل زاوية شيخ هو فى نفس الوقت رئيس الجماعة الإباضية والمكلف بتنفيذ أحكام الشريعة ، وفى العادة كانت تنشىء الجماعة زوايا أخرى فى قرى أو واحات جديدة ، وهكذا شيئاً فشيئاً نشأت شبكة الزوايا الخارجية ، التى كان لها أكبر الأثر فى نشر الإسلام فى الصحراء الأفريقية المدارية ، أى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا ، وكذلك فى السودان النيلى فى مناطق كردفان وواداى ثم فى منطقة بحيرة تشاد نفسها ، التى قامت فيها دول إسلامية أهمها البورنو والكانم .

تلك كانت الخدمة الحضارية الكبرى التى قامت بها الجماعات الإباضية ،

التى نشأت أساساً فى جبل نفوسة وتاهرت والأغواط ووارکلا وسجلماسة ، ثم شملت كل نواحى الصحراء . وعندما غزا العرب الهلالية أفريقية والمغرب فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، زال المذهب الإباضى وحَلَّتْ محله السنة ، فأصبحت مراكز التجارة والزوايا إسلامية سنية ، ولم تبق من الإباضية إلا آثار قليلة فى نواحى « مصاب » أو « مزاب » فى جنوبى الجزائر الحالية ، حيث ما زالت تقوم جماعات إباضية متميزة بطابعها الدينى ، وكذلك فى واحات وارکلا والأغواط ثم فى جبل نفوسة ، جنوبى طرابلس الحالية وفى جزيرة جربة فى تونس ، حيث نجد إلى يومنا هذا جماعات إباضية زاهرة .

***

obeikandl.com

الأدارســـة

من الأخطاء الشائعة القول بأن دولـة الأدارسة دولة شيعية ، لأن مؤسسيها وأمـراءها كـانوا من آل البيت . والحقيقـة أن الأدارسة رغم عَـلَويتهم لم يكونـوا شيعيين ، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأدارسة أو أتباعهم شـــيعياً ، فقد كانوا ســـنيين ، لا يعرفون الآراء الشيعية التى شاعت على أيام الفاطميين ، ولم يعرفوا فى بلادهم غير الفقه السنى المالكى . ومن البـديهى أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة لأحد ، أما الشيعة فهم أنصـارهم . والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنها كانت دولة علـوية هاشمية ، وهى أول تجربة نجح فيها أهل البيت فى إقـامة دولة لأنفسهم ، وهى من هذه الناحية تهمنا كتجربة سياسية فى سلسلة تجارب الحكم فى تاريخ المغرب ، وسلسلة تجارب أيضاً فى تاريخ الإســـلام العـــام ، وهو حافل بهذه التجارب من كل نوع .

ودولة الأدارســة من الدول الطويلـة العمر . فقد قـامت فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجـــرى ، ولكنهـــــا لم تنته تماماً إلا فى أواخر القـــرن الرابـــع الهجرى (١٠١٠ م) . وقـد عمرت فوق القـرنين ونصف ، أى ضعف ما عمـرته دولتا الأغـالبة والرستميين ، وثبتت لمحنـة الفاطميـة وجيوشها ، وخـاضت طوال تاريخها حرب بقـاء أو موت مع الدولة الأموية الأندلسية حينـاً وإلى جانبها حيناً آخر ، ولكنهـا مع ذلك العمر الطويل والحيـوية المتجددة ، كـانت دائماً من صغار الدول سواء فى سعـة مملكتها أو قوة أئمتها ، ولكنها كانت من أهمهـا من الناحية الحضارية ، فقد كان لها فى تاريخ المغرب أثـر حاسم فى صياغة مذهب السنة من ناحيـة ، وتعريـب البلاد من نـاحية أخـرى . وقد مـرت بفترات احتضار طـويلة وانتعشت مرات كثيرة .

وكما قـامت دولة الخوارج الإبـاضية فى تـاهرت نتيجـة للطموح السيـاسى لرجال الإباضية ، ورغبة قبائل المغرب الأوسط فى إقامة كيان سياسى لها ، فكذلك قامت دولة الأدارسة على أساسين :

الأول: طموح العلويين إلى إنشاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية .

والثانى : رغبة قبائل المغرب الأقصى فى إنشاء كيان سياسى خاص لهم .

وهذان هما العاملان الرئيسيان فى قيام هذه الدولة ، ولكننا فى كل ما يتصل بالمغرب ودوله ، ينبغى أن نبحث عن العوامل المحلية المتعلقة بالتركيب القبلى للشعب البربرى . وكذلك المتعلقة بطبيعة الأقاليم التى نريد التأريخ لها فى المغرب.

وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى ينقسم من حيث المناطق ذات الوحدة الجغرافية ، التى يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ، إلى ثلاثة أقاليم : **إقليم الساحل الشمالى** المعروف تاريخياً بإقليم طنجة ، ويشمل الشريط الساحلى الشمالى ، ثم منطقة الريف الجبلية ، وهى ليست فرعاً من جبال الأطلس ، وإنما هى فرع من الجبال الأيبيرية ، ويتبعها السهل الواقع جنوبى جبال الريف ويعرف بإقليم الهبط أو إقليم أزغان . **والمنطقة الثانية** حوض نهر سبو ويشمل الجزء الشمالى من ساحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسى ، وهو سهل فسيح يمتد جنوباً حتى يصل إلى حوض وادى بورجرج أو أبو الرقراق ، ويشمل جزءاً كبيراً من السفوح الغربية لجبال الأطلس . هنا نجد المهد الحقيقى لتاريخ المغرب العربى الإسلامى وتلك هى المنطقة الثانية . **والمنطقة الثالثة** هى المنطقة التى تقع جنوب نهر سبو وتشمل حوض نهرى وادى أم الربيع ووادى تانسيفت وهذه المنطقة أوسع وأغنى من المنطقة الشمالية ولأن الجبال تنسحب هنا كثيراً إلى الداخل تاركة سهلاً ساحلياً فسيحاً يسمى ساحله بريف تامسنا شمالاً وريف دكالة جنوباً . وتنقسم إلى الأطلس العليا والأطلس الداخلية أى الانتى أطلس ، وهنا نجد المجال الذى ستنفسح فيه القبائل البربرية الصنهاجية الكبرى، التى أنشأت دولة المرابطين ، والمصمودية التى أقامت دولة الموحدين بعد ذلك . ويدخل فى هذه المنطقة الثالثة إقليم السوس الذى يقع على الساحل بين فرعى جبال الأطلس .

ويحدّ المغرب الأقصى وادى نهر مولوية الذى يصب فى البحر المتوسط ، وإلى الشرق منه قليلاً نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الأوسط .

وتقوم جبال الأطلس حاجزاً بين المغربين الأوسط والأقصى ، ولكنْ هناك ممر

واسع بين الجزء الشمالى من جبال الأطلس وجزئها الجنوبى ، وهذا الممر يعرف بممر تازا ، وهو من المواضع الحاسمة بالنسبة لتاريخ القطرين ، ومن سيطر على ممر تازا سيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الأقصى .

وقد قامت الحياة السياسية فى المغرب الأقصى أولاً فى الشمال ، فى منطقة طنجة حيث نجد مركز الوالى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ، ويحاول أن ينشر سلطانه عليها ، ولكن قبائل برغواطة وغمارة ، التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ، ظلت متمسكة بمذاهب دينية منحرفة عن الإسلام ، عرفت بزندقة برغواطة ، وكانت هذه الأخيرة ومن تبعها ، تهدد كل القبائل المغربية الأخرى ، مما حدا بهذه كلها إلى البحث عن زعيم يجمع شتاتها ، ويعينها على تكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطة ومذاهبها ، وتساعد هذه القبائل على إنشاء كيان سياسى لها يُؤمِّن مصالحها ، ويُمكِّن لها من الوصول إلى الرياسة .

كانت الظروف إذن ممهدة لزعامة سياسية فى شمال المغرب الأقصى ، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطة أولاً ، ثم تمكن لها الأخرى من إنشاء دولة وكيان سياسى ، أى دخول ميدان التاريخ بحسب تعبيرنا اليوم .

هذا الزعيم أرادت المقادير أن يكون **إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب** ، وهو أحد القلائل الذين نجوا من القتل فى مأساة موضع يسمى باسم « فخ » ، أوقع العباسيون فيه بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن على ، كانوا يدعون لأنفسهم ويطمحون إلى أن يقيموا لأنفسهم دولة ، وكانت المأساة فى سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٦م فى خلافة الهادى العباسى .

وقد فَرَّ الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد ، وكان من الذين فروا **يحيى بن عبد الله** الذى هرب إلى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين وسبَّب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ، ولكن أسعدهم حظاً ، كان أخاه إدريس بن عبد الله ، هذا الذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب ، ثم لحق به أخوه سليمان الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه إدريس كياناً سياسياً فى نواحى تلمسان .

ولا ندرى إن كـان إدريس يعلم شيئاً عن المغرب عنـدما فر إليـه ، لكن مولاه راشداً الذى فر معه إلى المغرب كان يقال إنه بربرى الأصل . ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول ، فإنه حتى لو صدق ، لا يمكن أن يكون عاملاً رئيسياً فى قيام دولـة ، ولكنه على أى حـال وَجَّه إدريـس نحو المغـرب ، وقد يكـون راشد يعرف اللسان البربرى الذى يتكلم به الناس فى هذه النواحى من المغرب الأقصى ، ولكن الأهم من ذلك هـو أن راشداً كـان رجلاً ذكيـاً حسن التصرف بعيد النظـر ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية دون شك .

تقص النصوص علينـا حكاية روائيـة عن هروب راشـد وإدريس إلى المغرب الأقصى ، نجتـزىء منها بالقـول بأن راشـداً وإدريس خرجـا إلى المغرب فى زى التجار مع القـوافل ، فكان راشد هو السيـد وإدريس خادمه ، يأمره أمـام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفى شخصيته . وبعد رحلـة سنتين أى خلال سنة ١٧١ هـ / ٧٨٨ م ، ظهـر الاثنان فى طنجـة ، وأخذ راشـد يدعـو لأمير علوى يحمل رايـة الإسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وكانت دعوة راشد لرجل من أهـل البيت كافية لتكسب الأنصار ، ولكن يبدو أن التوفيق لم يكن كبيراً فى طنجة ، وكانـت عاصمة المغرب فى ذلك الحين ، وأحس راشد أن مكـان القوة الحقيقى يكمن فى وسط قبائل أوربـة ، وكان مركـز الجناح الغربى لهذه القبائل فى مـدينة وليلى عند قاعـدة جبل يسمى « زرهون » ، وتقع فى منتصف المسافة بين فاس ومكناس الحاليتين .

وكانت وليلى مـركزاً تجارياً ممتـازاً وسوقـاً عظيمة للقبائل ، وعـرفت فى أيام الرومان باسم Cululis ، وهى من هـذه الناحية أصلح مـا تكون كمـركز لـدعوة سياسيـة ، وأما أوربـة فكانت تتـزعم مجموعـة قبائل ضخمة تمتـد من الأطلس الأوسط إلى وادى سبو ، وقد عرفنـا هذه القبيلـة أيام كسيلة ، ورأينا صراعها مع عقبـة بن نافع ثم زهير بن قيس . وتـدخل فى هذه القبـائل مجموعـة غمارة وهى أيضاً قبائل برنسية تمتد فى حـوض سبو وإقليم الهبط ، الذى يسمى لهذا أحياناً هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الأطلسى .

نـزل إدريس مـدينة وليلى فى ربيع الأول ١٧٢هـ/ أغسطس ٧٨٨م وبـدأ

يـدعو لنفسـه ، ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصـاراً ، فإن شيوخ أوربـة كـانوا مستعـدين لتأييد زعيم يقـودهم فى ثورة للخـروج من سلطان بـرغواطـة وينشىء لهم دولة تضاهى دولة بنى رستم فى تاهرت ، وكانت قرابته من الرسول ﷺ كافية لاجتذاب القلوب إليه ، خـاصة إذا أضفنا إلى ذلك خبر مأساة « فخ » وما وقع للعلـويين فيهـا من القتل والتشريد ، وهـم سلالـة النبى الأكـرم . لهذا التف الناس حول إدريس فى حماس ، وقـام إلى جانبه راشد ، يدبر لـه الأمر ويجمع له القلـوب ، وبعد قليل أصبـح إدريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغـربى من قبيلـة أوربة ، وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل الساكنة فى هذه النواحى وكانت ناقمـة على برغواطة ، وأهم هذه الفـروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعاً قبلياً ضـخماً مفككاً يحمل عبء برغـواطة واستبدادها ، ومع غمارة انضمت إلى إدريس قطع من زواوة وسدراتة ونفزة ومكناسة .

وبقـوات هـؤلاء استطـاع إدريس أن يسـود حـوض سبـو وبعض المنطقـة الشماليـة من المغرب الأقصى ، وسـار بقواتـه متنقـلاً فى هذه النـواحى يُخضِع القبائل أو يتلقى طاعتها ، حتى امتد سلطـانه فى أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنـا ، ومن طنجة إلى وادى أم الـربيع وهى رقعة فسيحة غنيـة ، ومهد لـدولة يحسب لها حساب .

هنا تنبه **هارون الرشيد** إلى مـا يمكن أن ينجم من الخطر من هـذه الدولـة ، وكان أكثر ما أخافـه أن أميرها علوى من أهل البيت ، ولأهل البيت مكان عظيم من حب الناس ، وخاصـة بعد الذى جرى لهم على أيـدى الأمويين أولاً ، ثم العباسيين بعد ذلك ، وربما كانت هناك مبالغة كبيرة فى تصوير مخاوف الرشيد ، ولكن قيام إمـارة علـويـة فى أى مكان مـن بـــلاد الإسـلام ، أمـر لا يمكن أن يستريح لـه العباسيون .

وتـذهب الحكايـات إلى أن الرشيـد تـدارس أمر إدريس مع جعفـر البرمكى ، فتبيَّنا استحالـة إرسال عساكر إلى المغرب ، للقضـاء على إمارة إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبـى طالب ، ولم يجدا أمـامهما إلا الاحتيـال فى اغتيـاله بـالسم ، فـوقع اختيارهما على رجل جـرىء يسمى **سليمان بن جـرير**

ويدعى **بالشماخ** فحمل السم ومضى إلى المغرب ودخل فى خدمة إدريس وكسب ثقته ، ثم تحيل فَدسَّ له السم فى هيئة طيب دخل فى خيشومه كما تقول القصة الشعبية التى نقلها المؤرخون على أنها تاريخ ، وانتهى إلى دماغه فغشى عليه وسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه ، ثم توفى فى ربيع الأول ١٧٥هـ/ يوليو ٧٩١م . والحكاية لا يمكن قبولها ، ولكنها تصوير لاستنكار الناس موت هذا الرجل بعد ثلاث سنوات من قيام دولته ، فإن موت الرجال فى عنفوان قوتهم يروع النفوس ، وخاصة إذا جاء فجأة ونتيجة لمرض باطنى مجهول .

وهنا تبدو لنا مهارة راشد الذى كان المدبر الحقيقى لهذه الدولة ومحور العمل فيها . ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفى ترك إحدى جواريه ، وتسمى « كنزة » حاملاً فاتفق راشد مع رؤساء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد « كنزة » ، فإذا ولدت غلاما كان أميرهم . وتسير القصة فيكون المولود ولداً ، فيسمونه إدريس على اسم أبيه وبايعوه وهو بعد فى المهد ، ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا شيوخ القبائل . وكان عزيزاً عليهم أن يضيع السلطان الذى وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النبوى . ولهذا انتظروا حتى بلغ الغلام عشر سنوات فبايعوه مرة أخرى سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م ، واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة .

ثم مات راشد عقب ذلك ، فقيل : إن إبراهيم بن الأغلب تحيل فى سمه ، وهكذا بقى الغلام إدريس دون راع حقيقى ، فقام بهذه المهمة شيخ من شيوخ البربر يسمى **أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى** ، فجدد البيعة لإدريس سنة ١٨٧ هـ/ ٨٠٣م ، واستمر ولاء القبائل له ، وفى سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م ـ وكانت سن إدريس ١٧ سنة ـ يختفى أبو خالد من الميدان بتهمة التواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب ، المهم لدينا أن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن أو إدريس الثانى ، بدأ يحكم مستقلاً بنفسه ابتداء من سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م .

عقب ذلك مباشرة نجد كثيرين من مهاجرة العرب ، يفدون على إدريس من القيروان خاصة ، ويدخلون فى خدمته . ويتجه نظره إلى الخروج من وليلى ، ربما

لأنه كان يريد التحلل من سلطان قبيلة أوربة ، فَدلَّه الناس على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سبو بين جبلين ، يسمى وادى فاس فانشأ فيه بلدة صغيرة ، سميت « عدوة ربض القرويين » ، ثم وفدت جماعة من مهاجرة قرطبة وأنشأوا قرية مجاورة ، عرفت باسم عدوة الأندلسيين ، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى إدريس لنفسه داراً فى عدوة القرويين وشرع فى إنشاء مسجد فاس الجامع، وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م ، ودخلت دولة الأدارسة فى الدور الحاسم من تاريخها .

وابتداء من ١٩٧ هـ/ ٨١٢ ـ ٨١٣ م بدأ إدريس سلسلة حملات ، ثبتت سلطان الدولة ، من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسى ، ونشط لحرب الخوارج فى جبال الأطلس . ودارت حرب طويلة بينه وبين البرغواطيين . وفى هذا الدور من تاريخ الأدارسة حمل العبء رجال قبيلتى أوربة وغمارة بشكل خاص ، كما حملت كتامة عبء الدولة الفاطمية فى أول قيامها .

ومات إدريس الثانى فى ربيع الأول سنة ٢٠٢/ سبتمبر ٨١٨ ، بعد أن ثبَّت دعائم الدولة ، بعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسيه من بنى الأغلب خاصة .

بعد وفاة إدريس الثانى نجد ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفاً غريباً وغير معقول ، فيقوم ، بناء على نصيحة جدته كنزة ، بتقسيم الدولة بين أخواته الكثيرين ، وكان المعقول أن يقيمهم عمالاً أو ممثلين للدولة ، ولكنه أعطاهم نواحى الدولة إقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها ، فكان هذا سبباً فى ضعف الدولة وهى بعد لم يكتمل عمرها . ومع أن محمد بن إدريس احتفظ لنفسه بالرياسة واعتبر إخوته أتباعاً له ، إلا أن بعض الإخوة اتجه إلى الاستقلال بناحيته ناسياً أن قوة الدولة الإدريسية تكمن فى ترابط رؤسائها من أفراد البيت الإدريسى العلوى ، الذى كان يتمتع فى قلوب الناس بمكانة جليلة .

وكان التقسيم كما يلى :

القاسم : سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكلتاهما جنوبى تطوان .

وكانت تطوان فى إقطاعه كذلك .

عمر : بلاد الهبط أو هبط غمارة .

داوود : بـلاد هوارة وتسـول وتـازا وما بينهما ، بما فى ذلـك مواطن قبـائل مكناسة وغياثة .

عبد الله : أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ، فى أقصى جنوب المغرب الأقصى .

يحيى : أصيلا والعرائش وبلاد زواغة .

عيسى : مشالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة .

أحمد : مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد فازاز .

حمزة : وليلى وأعمالها .

ابن عمه سليمان : تلمسان .

واكتفى هو بفاس حاضرته وأقـام فيها ، ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلاً من أولئك الإخوة الكثيرين ، بلـداً أو أكثر وإقليماً تسكنه قبيلة أو قبـائل ، وكان له الحق فى الاستيلاء على معظم المال الذى يجمع من الناحية .

وكان من الطبيعى أن ينقلب بعـض الإخوة عليه ، وأن يتحـاربوا فيما بينهم ، وقد استعان محمد بأخيه عمر على الثائرين من إخوته وأعطاه أعمالهم ، فاتسعت ولاية عمـر حتى بلغت عند مـوته نصف الدولـة الشمالى والغربى كلـه ، ثم خلفه عليها ابنه على بن عمر بن إدريس .

وعندمـا مات محمـد بن إدريس الثانى سنـة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م ، تـرك دولة مُـفرَّقة مُـقسَّمة وضعيفة .

وقد خلفه ابنه على الأول بن محمد ويسميـه ابن خلدون « حيدرة » ، وحيدرة لقب كان يطلـق على على بن أبى طالب ومعناه الأسـد ، وكان غـلاماً فى التـاسعة ، فحكم تحت وصايـة أقاربـه ورجال الدولـة حتى توفى سنـة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ، وعهد بالأمر إلى أخيه **يحيى الأول بن محمد** .

فى عهد يحيى هـذا بلغت فاس أَوْجَهَـا أيام الأدارسـة ، فقامت فيهـا المنشآت

الكثيرة وامتدت على سفوح الجبال ، وأنشىء جامع القرويين على يد السيدة **فاطمة بنت محمد الفهرى** ، وجامع فاس من مساجد الإسلام المشهورة ، وقد أصبح مركزاً للعلم والدراسة من أول نشأته ، وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ، مثله فى ذلك مثل الجامع الأزهر . ولكن جامعة القرويين أقدم من جامعة الأزهر . وهى عميدة الجامعات الإسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

وبعد يحيى الأول حكم ابنه **يحيى الثانى** وكان شاباً طائشاً غير أهل للحكم ، فثار عليه الناس وطردوه فاختفى ومات فى مخبئه ، واختاروا ابن عمه **على الثانى ابن عمر بن إدريس الثانى** ، الذى كان يحكم جزءاً من الدولة أعطاه إياه أخوه محمد بن إدريس كما قدمنا ، فانتقل الملك إلى فرع عمر بن إدريس ، ولكن على الثانى هذا ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر إلى قبيلة أوربة ، وتولى بعده **يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى** ، الذى صرف وقته فى قتال الخوارج الصفرية من ٢٩٢ ــ ٣١٠ هـ / ٩٠٤ ـ ٩٢٢م حتى قتله الربيع بن سليمان فانتقل الملك إلى **يحيى الرابع بن إدريس بن على بن عمر بن إدريس** ، ويقول ابن خلدون عنه : إنه كان أوسع أمراء الأدارسة سلطاناً وأثبتهم ملكاً ، وفى ذلك مبالغة دون شك .

وفى سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ ــ ٩١٨ م وفى إمارة يحيى هذا أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه **مصالة بن حبوس الكتامى** قائد عبيد الله المهدى الفاطمى وهدفه إزالة دولة الأدارسة ، وانتصر مصالة ، ثم ولّى على المغرب الأقصى شيخاً من شيوخ البربر وهو **موسى بن أبى العافية** شيخ مكناسة ، وجعله عاملاً على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يُقِمْه أميراً على فاس ، وكان من الطبيعى أن يطمع موسى بن أبى العافية فى أن يحل هو محل الأدارسة فى دولتهم ، وبالفعل تم له ذلك سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ ـ ٩٢٦ م فقام بالقضاء على أمراء الأدارسة القائمين بالأمر فى بعض نواحى المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة فى جبال الريف تسمى حجر النسر .

إلى هنا ينتهى الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، لأن الباقين منهم سيستجمعون أمرهم فى قلعة حجر النسر ، وتكون لهم نهضة ودولة جديدة على

يد زعيم جديد من أحفادهم الذين اختلطوا بـالبربر اختلاطاً شديداً وأصبحوا من أهل البلاد ، وهو **الحسن بن قنون أو جنون أو كنون** ومعناه « الجميل » .

وهنا نقف بتـاريخ الأدارسة ، لأن الدور الثـانى من تاريخ الأدارســـة وهو دور بنى قنـون شديـد التعقيـد ، وهـو شديـد الصلـة بالصراع بين الفـاطميين والأمويين الأندلسيين على مصير المغرب الأقصى .

وفى سلسلـة التجـارب السيـاسية التى مـر بها تـاريخ المغـرب منـذ الفتح الإسلامى ـ وقـد ذكرنا أهمها إلى الآن ـ تعتبر الدولـة الإدريسية الخطوة الأولى فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم ، فللمرة الأولى منذ الفتح تقوم هنا دولة إسلامية ظاهـرة العروبة ، فقد كان أمراء الدولة والكثير من رجال دولتهم عرباً ، ولكن الدولة نفسها قامت على أكتاف البربر المستعربين ، وخاصـة قبائل أوربـة وغمارة ومكناسة وهـوارة ولواتـة ، فكانت الغلبـة فى هذه الدولة لأولئك البربر ، مما أسرع تعريبهم ، وعجل بقيام المغرب العربى .

وقـد نجحت الدولـة الإدريسية فى القضـاء على الجانب الأكبر من انحرافـات بـرغـواطـة ومـن لَفَّ لفَّهَـا من القبـائل ، وكـان لابـد مـن ذلك لأن العروبـــة الصـــحيحة لا تستقيم إلا مع الإسلام الصحيح ، ومـن النادر أن تأتلف العروبة مع مذهب آخر غير المذهب السنى البسيط الواضح .

وكان دليل قيـام ذلك المغرب الأقصى العـربى المسلم هو قيـام مدينـة فاس وجـامعها العظيم ، وكما كـان قيام القيروان هـو الخطوة الأولى فى قيـام أفريقيـة الإسلاميـة ، فكذلـك كان قيام فـاس الخطوة الحاسمـة فى قيام المغـرب الأقصى العربى المسلم . فقـد أصبحت فاس مركـزاً رئيسياً للثقافـة العربية الإســلامية ، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى .

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بـدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلاميـة ، وبدأ يتكـون المجتمع العربى المغـربى المسلم ، وهذه نتيجـة ليست بـالهيِّنـة ، إذ إنها تعتبر الخطـوة الحاسمـــة فى التغير الكبير الـذى جعل المغـرب الأقصى بلاداً عربية كاملة العروبة والثقافة .